سورة الفلق

مدنية وهي ست آيات مع البسملة

هذه السورة مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. وهي مدنية في قول ابن عباس، وهذا ما قال قتادة أيضا (روح المعاني). ويقول جلال الدين السيوطي في كتابه "الإتقان" أن المختار أنها مدَنية.

والذين اعتبروها مدَنية دليلهم أنها والسورة التالية لها نزلتا في مرض النبي ﷺ الذي قالوا أنه أصيب به نتيجة سحر اليهود له، فكان يدعو بهما وينفث على جسمه. ولما كان هذا الحادث قد وقع في المدينة، فهما مدَنيتان (روح المعاني).

هذا هو استدلالهم على أنها مدنية، وليس معه أي شهادة تاريخية. وليس بأيدينا أيضًا شهادة تاريخية يقينية على أنها مكية، غير أن الاستدلال الذي قاموا به واهٍ جدا؛ إذ من الممكن أن تكون هذه السورة قد نزلت في مكة، وكان النبي ﷺ يقرأها في مرضه في المدينة وينفث في يديه. وحيث إن الله تعالى قد اختتم القرآن الكريم بهاتين السورتين، فيمكن أن نستدلّ من ذلك أن سورة الفلق إما مكية ومدنية معًا، أو هي مدنية، لأن القرآن اختتم في المدينة.

أما حادث مرض الرسول ﷺ الذي ظنّ الناس أنه كان بسبب سحر اليهود (مجمع البيان)، فقد ذُكر في الرواية التالية:

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سُحر رسول الله ﷺ حتى إنه ليخيَّل إليه أنه فعَل الشيء و لم يكن فعَله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا الله ثم دعا ثم دعا، ثم قال: أَشَعَرْتِ يا عائشةُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَاني فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ قلت: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ جَاءَنِي رَجُلانِ فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الذي عند رأسي للذي عند رجلي أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي: مَا

وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ مَطْبُوبٌ. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ. قَالَ: فِي أي شيء؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ (وهو ما يسقط من الشعر عند مشطه) وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ فِي بئر ذي أروان. قَالَتْ: فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في أناس من أصحابه. ثمَّ قال: يا عائشةُ، وَاللَّهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ ولَكَأَنَّ نَخْلَها رُءوسُ الشَّياطين. قالت فقلت: يا رسول الله، أفلا أحرقتَه؟ قال لا، أما أنا فقد عافاني الله تعالى، وكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا. فأمرتُ بها فدُفِنَتْ. وهذان الملَكان على ما تدلّ عليه روايةُ ابن مردويه عن طريق عكرمة عن ابن عباس هما جبريل وميكائيل- عليهما السلام- ومن حديثها في "الدلائل" للبيهقي بعد ذكر حديث الملكين: "فلما أصبح رسول الله ﷺ غدا ومعه أصحابه إلى البئر، فدخل رجلٌ فاستخرج جُفَّ طلعةٍ من تحت الراعوثة (حجرٌ في أسفل البئر)، فإذا فيها مشط رسول الله ﷺ ومِن مشاطة رأسه، وإذا تمثالٌ مِن شمعٍ، تمثالُ رسول الله ﷺ، وإذا فيها إبرٌ مغروزة، وإذا وتَرٌ فيه إحدى عشرة عقدة. فأتاه جبريل عليه السلام بالمعوذتين فقال: يا محمد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾،

وحلَّ عقدةً، ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وحلَّ عقدة، حتى فرغ منهما وحلَّ العُقَدَ كلها، وجعَل لا ينزع إبرة إلا وجد لها ألمًا، ثم يجد بعد ذلك راحة. فقيل: يا رسول الله، لو قتلتَ اليهودي. قال: قد عافاني الله تعالى، وما يراه من عذاب الله تعالى أشد. وفي رواية: أن الذي تولى السحر هو لبيدُ بن الأعصم وبناته، فمرض النبي ﷺ، فنزل جبريل بالمعوذتين وأخبره بموضع السحر وبمن سحره وبمَ سحره. فأرسل ﷺ عليًّا -كرم الله تعالى وجهه- والزبير وعمارًا، فنزحوا ماء البئر وهو كنقاعة الحناء، ثم رفعوا راعوثة البئر، فأخرجوا أسنان المشط ومعها وترٌ قد عُقِدَ فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر. فجاءوا بها النبي ﷺ، فجعل يقرأ المعوذتين عليها، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد عليه الصلاة والسلام خفةً، حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين، فقام ﷺ كأنما أُنشِطَ مِن عقال. الخبر والرواية الأولى أصح من هذه. (روح المعاني)

أما قول النبي ﷺ: "وَاللَّهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ" فمعناه أن ماء البئر كان أحمر يشبه الماء الذي وُضع فيه الحناء فاحمرَّ. ويبدو أنه كان من عادة اليهود أنهم إذا سحروا أحدًا ألقَوا الحنّاء أو ما شابهه في الماء، إيهامًا للناس بأن الماء قد احمرّ بقوة السحر.

وأما قوله ﷺ: "ولَكَأَنَّ نَخْلَها رُؤوسُ الشَّياطين"، فيعني أن النخل حول البئر كانت ذات طلوع كأنها رؤوس الشياطين.

أما قول عائشة رضي الله عنها: أفلا أحرقتَه؟ وقول النبي ﷺ لها: "لا، أما أنا فقد عافاني الله تعالى وكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا"، فالمراد أن عائشة قالت: لماذا لم تحرق الأشياء التي حاولوا سحرك بها؟ فقال ﷺ: ما دام الله قد شفاني، فلا أريد أن أتيح لليهود فرصةً لإثارة ضجة بأننا أحرقنا ممتلكاتهم.

إن ما روته عائشة –رضي الله عنها– هنا يعني فقط أن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ عن طريق ملائكته أن اليهود قد حاولوا أن يسحروه، ولا يعني ذلك أن سحرهم كان قد أثَّر في النبي ﷺ بالمعنى التقليدي الشائع للسحر، بل الواقع أن المرء إذا عادى غيره عداء شديدا أو كرهه كرها شديدا، ركّز عليه كل التركيز للإضرار به، وكما أن السحر يؤثر على الآخر كذلك عملية التركيز هذه تؤثّر على الآخر تأثيرًا كبيرًا، وتسمى "المسمريزم"*، وكأن اليهود سعوْا للتركيز على النبي بهذا النوع من

* المسمريزم: طريقةٌ منسوبة إلى الطبيب الألماني "فرانز أنطون مسمر" (**Franz Anton Mesmer**) (١٧٣٤–١٨١٨) تبحث في الوسائل العلمية –بعيدًا عن السحر والشعوذة– في إمكانية التأثير في عقول وأبدان الآخرين؛ إذ يرى "مسمر" أن كافة الكائنات الحية غارقة في بحر من سائل أو أثير، ويمكن لها من خلاله أن تتواصل عن طريق ما سمّاه " المغناطيسية الحيوانية". وكما أن الشيء المعدني يمكن أن ينقل تأثيره المغناطيسي إلى غيره، كذلك يمكن للكائن البشري أن يركز السائل الأثيري وينقله إلى داخل جسد شخص آخر. (المترجم)

المسمريزم الذي يحاول به البعض التركيزَ على خصمه، فلما أخرج النبي ﷺ من البئر ما حاول به اليهود سحره، ودَفَنَه، ظنّوا (أي اليهود) أن سحرهم المزعوم قد بطُل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى شفى الله نبيه ﷺ أيضا. خلاصة الكلام أن اليهود كانوا يوقنون أنهم قد سحروا النبي ﷺ، فكان طبيعيا أن يركّزوا على أن يمرض، فكان لتركيزهم هذا تأثيرٌ على جسده، ولكن حين كشف الله تعالى الحقيقة على رسوله ﷺ ودفَن تلك الأشياء، زال أثر تركيز اليهود عليه ﷺ وشفاه الله.

هذه الرواية إذ تدل على ما كان اليهود يكنّونه من عداء شديد للنبي ﷺ، فإنها تبيّن أيضًا أن النبي ﷺ كان رسول الله حقًا، ذلك لأن الله تعالى قد أخبره بمكائد اليهود ضده، فاطّلاعه على هذا الغيب وفشلُ اليهود في هدفهم الخبيث، لدليلٌ ساطع على أنه ﷺ كان نبيًّا صادقًا.

فضائلها: أخرج مسلم والترمذي والنسائي: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آيَاتٌ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾."

ولأن هاتين السورتين ملخّص القرآن الكريم، ثم إنهما تشتملان على مواضيع واسعة عميقة وأنباء مستقبلية، فلذلك اعتبرهما النبي ﷺ أن لا نظير لهما، إشارةً إلى فضائلهما وسعة مفاهيمها.

وقد ذكر صاحب روح المعاني أن البخاري وأبا داود والنسائي قد أخرجوا عن عائشة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ؛ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. (البخاري: كتاب فضائل القرآن)

وجاء في الحديث أن مَن قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي وثلاثا حين يصبح كَفَتْه من كل شيء. (روح المعاني)

والمراد من قوله ﷺ: "كفته من كل شيء" أن العمل بتعاليم القرآن الكريم ينجي الإنسان من الآلام والآفات، لأن الذي يقرأ المعوذتين صباحا ومساء لا بد أن يظل

مُلَخَّصُ تعاليم القرآن نصْبَ عينيه صباحا ومساء، وبالتالي لا بد أن يفكر في العمل به، وهكذا سينجو من الآلام والآفات والبلايا.

وكذلك أخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: اقرءوا بالمعوذات في دُبر كل صلاة (الدر المنثور). وكذلك أخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: مِن أحبِّ السورِ إلى الله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. (الدر المنثور)

وفي رواية أن النبي ﷺ كان يقرأ في الركعة الثالثة التي يوتر بها بـ: قل هو الله أحد، والمعوذتين. (الدر المنثور).

هذه الروايات كلها تدل على فضائل هذه السورة، وتنبّهنا إلى ضرورة النظر إلى الله كل حين، والدعاءِ الدائم بأن يعيذنا في كنفه. ولما كانت صلاة الوتر آخرَ صلوات اليوم، فكان النبي ﷺ يقرأ المعوذتين في آخر ركعة فيها. أما قوله ﷺ بأن مَن قرأهما صباحا ومساء نجا من الآفات، فمعناه أن على المرء أن يبدأ يومه بتعاليم القرآن وينهيه بها أيضا.

يظنّ البعض أن سورتي الفلق والناس ليستا من القرآن الكريم، وإن كانوا يُقرّون بأن النبي ﷺ قد أملاهما مع القرآن الكريم، وكان يقرأهما عند نهايته، ويأمر بقراءتهما. هذا رأي عبد الله بن مسعود –وهو من الصحابة المقربين للرسول ﷺ– ولكنه لا يستند إلى دليل، ذلك أنه لا يؤخذ –فيما يتعلق بالأحداث– إلا بشهادة مَن رأى الحدث بأم عينه، أو قال إنه سمعه من الرسول ﷺ، ولكن عبد الله بن مسعود لا يقول إنه سمع النبي ﷺ ينفي أنهما من القرآن الكريم، كل ما يقوله إن الله تعالى قد أمَر نبيّه بالاستعاذة بهما، فثبت أن القرآن قد انتهى قبلهما! والواضح أن هذا مجرد ظنّ. وما دام كبار الصحابة قد أخبروا أن النبي ﷺ قد أملى عليهم هاتين السورتين جزءاً من القرآن الكريم (روح المعاني) فلا قيمة لما يظنه عبد الله بن مسعود، لا سيما مع اعترافه أنهما كانتا تُكتبان مع القرآن وتُقرآن معه، فثبت أنهما جزء من القرآن الكريم يقينا، وقد اختارهما الله تعالى ليَختم بهما القرآن.

الربط والترتيب: لقد بينتُ عند تفسير سورة الإخلاص أن هذه السور الثلاث الأخيرة في المصحف معًا تقدم خلاصة القرآن الكريم، كما تقدم سورة الفاتحة خلاصته في بدايته. فسورة الإخلاص تتناول نفس ما ورد في العبارات التالية من سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

أما سورة الفلق فتتناول ما ورد في العبارات التالية من سورة الفاتحة: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ ذلك أن سورة الفلق تبتدئ بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، فكلمة ﴿أَعُوذُ﴾ تشير إلى شرّ، وأُمِرنا بالدعاء للاتقاء منه، فقال الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.. أي أعوذ بخالق كل شيء من شرّ كل شيء؛ فبقوله ﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾ أشار إلى قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، في الفاتحة، وبقوله ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أشار إلى قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. أما قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ فمعناه: عندما يسود الظلام في كل مكان. وقد بيّن هنا أن صفة ربوبية العالمين لا تنكشف للدنيا أحيانًا، وإنني أستعيذ بالله تعالى من شرّ ذلك. أما قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ففيه إشارة إلى عدم انكشاف الربوبية في حالة معيّنة، ذلك أن الحاسد يحسد الآخرين عندما ينزل الإنعام على بعض والعقاب على بعض. إذن، فقد علَّمنا الله في سورة الفلق أن ندعو: ربّ، احمِنا عند نزول غضبك العام في الدنيا، وأيضا عند نزول غضبك الخاص، حتى لا نكون من الحاسدين ولا من المحسدوين الفاشلين. ذلك أن المحسود يفشل أحيانا نتيجة حسد الحاسدين.

فثبت من هنا أن جزءًا من مضامين سورة الفاتحة قد ورد في سورة الإخلاص، وجزءًا منها في سورة الفلق، وجزءًا منها في سورة الناس. وهكذا أُعيد موضوع الفاتحة كله في هذه السور الثلاث الأخيرة. ومما يربط هذه السورة بسورة الإخلاص أن الله تعالى قد علمنا في الإخلاص درس التوحيد الكامل، وأخبرنا أن خلاصة القرآن كله أن الله أحد لا شريك له. أما سورتا الفلق والناس فأمر فيهما

كل مسلم أن يرفع راية توحيد البارئ في زمنه، غيرَ خائف مِن أيّ طاغية جبّار عدوٍّ للإسلام، موقنًا أن الكون كله يتحرك بإشارة الله الأحد وحده، وأنه تعالى قادر على إعطاء كل خير، والحماية من كل شرّ؛ فلا داعي للخوف من المخلوق عند إعلان توحيد البارئ ﷻ، لأنه يتولى حماية مَن يسعى لإشاعة توحيده، ولا يستطيع الجبابرة مقاومته ﷻ. ولسورة الفلق علاقة بسورة النصر، ذلك أن الله تعالى قد أخبر رسوله في سورة النصر برقيّ الإسلام وازدهاره الذي لن يحول دونه أي قوة. أما سورة الفلق فنصح الله فيها المسلمين أنهم إذا أصبحوا غالبين بحسب هذه الأنباء الإلهية فعليهم أن ينيبوا إلى الله ويدعوه بألا يُصابوا بضعف وألا تغيب شمسهم، بل تظلّ ساطعة في كبد السماء، وألا يصيبهم شرّ، ولا يختلّ نظامهم، ولا يتشتت شملهم، ولا يستطيع حاسدٌ القضاءَ على حكمهم أو غلبتهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿٢﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

أعوذ: عاذَ به مِن كذا: لجأ إليه واعتصمَ. تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: أي ألتجئ إلى الله وأعتصم من الشيطان. وعاذ بالشيء: لزمه. ومنه: عاذت بولدها: قامت معه. (الأقرب)

فالمراد من ﴿أَعُوذُ﴾: ١: أعتصم بالله، ٢: أريد أن ألتزم بالله.

الفَلَق: الفلقُ: الصبحُ؛ الخَلْقُ كلُّه؛ جهنمُ؛ المطمئنُّ من الأرض بين ربوتين؛ مقطرةُ السجّان، وهي خشبة فيها خروق على قدر سعة الساق، يُحبس فيها الناس على قطار؛ ما يبقى من اللبن في أسفل القدح؛ والفلقُ من اللبن: المتقطعُ حموضةً؛ الشِّقُّ في الجبل (الأقرب).

وفي "المفردات": "الفلْقُ: شَقُّ الشيءِ وإبانةُ بعضِه عن بعض. وقولُه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي الصبح، وقيل: الأنهار المذكورة في قوله ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا﴾".

ويسمى الصبح فلَقًا لأن ظهور بياض النهار يقسم الفضاء شقيْن، وتسمى الأنهار فلقًا لأن مياهها تشق الأرض.

فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يعني:

١: أعوذ بالرب الذي يخلق الضوء بعد الظلام.

٢: أعوذ بالرب الذي خلق كل شيء، أو خلق جهنم، أو خلق الأرض المستوية أو سهلاً مستويا بين ربوتين.. أو أنزل دين الإسلام الذي هو معتدل بين الإفراط والتفريط.

٣: أعوذ بالرب الذي له السلطة على السجون.

٤: أعوذ برب الأنهار.

٥: أعوذ بالرب الذي له ما بقي في الإناء من لبن.

التفسير: تسمى سورتا الفلق والناس بالمعوِّذتين.. أي السورتان اللتان يُطلب بهما ملاذ الله، وسببُ تسميتهما ابتداؤُهما بكلمة ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، أي أن الله يأمر قارئهما أن يعلن أنه يعتصم برب الفلق ورب الناس من كل شر، فرديًّا كان أو جماعيًّا.

والملاحظ هنا أن الله تعالى قد أمر المؤمن في القرآن أن يلوذ بملاذه ﷻ عند البدء بقراءته إذ قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (النحل:٩٩)، ولكنه تعالى لم يُنْزِل الاستعاذةَ في بداية القرآن؛ إذ لم يبدأه بكلمةٍ مثل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بل استهلّه بقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يأمرنا بالاستعاذة به بعد ختم القرآن، وإنما أنزلَ الاستعاذة نفسها عند ختامه في سورة الفلق والناس اللتين لا بد لكل قارئ من قراءتهما عند وصوله إلى نهاية القرآن. وإن في ذلك حِكَمًا عديدة منها:

١: عندما ينوي الإنسان القيام بعمل صالح، فلا يرث أفضال الله تعالى الكاملة بمجرد نيّته، بل حين يريد فعل الخير يرشده الله تعالى إلى الطريق السليم، أي إلى ما يحقق مراده هذا، ولذلك ما أنزل الله تعالى كلمات الاستعاذة في وحي القرآن، إنما اكتفى بقوله إنكم إذا أردتم قراءة القرآن فاستعيذوا به ﷻ، وكأنه تعالى دلّنا فقط على ما يقوّي إرادتنا. أما بعد أن ختمنا القرآن وعمِلْنا به، أنزل الله تعالى آيات الاستعاذة عند ختامه.. أي أنه تعالى علّمَنا الاستعاذة بعونه دون خيار منا. فثبت من ذلك أن الإنسان لما قام بإرادة، أعانه الله أيضا بالإرادة، ولما عمل بالقرآن، أعانه الله أيضًا عمليًا.

٢: إن المسلم عندما يبدأ بقراءة القرآن، سواء من أوّله أو وسطه أو آخره، فلا يكون عندها مطّلعا على تفاصيل أحكامه، إذ لم يكمل قراءته بعد، ولكن عندما يختم القرآن ويصل إلى نهايته، فيكون قد اطّلع على شتى معارفه وأحكامه المفصلة، ويعرف ما عليه فعْلُه وما عليه تجنُّبه، ويتيسر له العلم بأنواع العثرات التي يمكن أن يتعرض لها، أعني أن قراءته القرآن من أوله إلى آخره توسِّع آفاقه؛ فيعرف مسؤولياته وواجباته، فيصيبه القلق مخافة التقصير في أداء واجباته، وقد علّمه الله الاستعاذة نظرًا إلى حالتيْه هاتين، فأمَره بالاستعاذة قبْل البدء في تلاوته، والكلماتُ التي علّمها الرسول ﷺ للبدء في التلاوة وجيزة جدًّا، وكأنها موافقة لعقل القارئ الذي يبدأ القرآن، أما الاستعاذة التي أنزلها الله تعالى عند ختام القرآن الكريم، فمفهومها واسع؛ وقد علّمه الله فيها دعاء كاملا لتجنُّب الأضرار، وهو دعاء يتفق مع حالة ذهن الإنسان الذي قد أنهى القرآن كله، واستوعب مفاهيمه، واطّلع على كل صغيرة وكبيرة منه، وعلِم ماذا عليه فعْلُه، وماذا عليه تجنبه.

فثبت من ذلك أن في كلا النوعين من الاستعاذة حِكَمًا بالغة. إن مثال الاستعاذة في بداية القرآن وفي نهايته، كمثل شخص يريد بناءَ بيت، فيطلب من بعض الصلحاء وضْعَ أساسه، وعندما يكتمل بناؤه يطلب من الصالحين الدعاءَ بالبركة. وهذا هو حال الحسنات أيضًا، فعندما يريد المرء رفع صرح الحسنات، فلا بد أن يضع حجر أساسه بيد الله، وإذا أوشك تشييده على أن يكتمل، فيضع لبنته

الأخيرة بيد الله أيضا. فإنهم حين يستعيذون بالله تعالى قبل البدء في قراءة القرآن، فكأنهم يسألون الله تعالى أن يضع حجر أساس صالحاتهم، وحين يستعيذون بالله تعالى عند ختام القرآن الكريم فكأنهم يسألونه تعالى أن يقوم بافتتاح بيت تقواهم. والحق أن بناء الإيمان لا يكتمل من دون هذين الأمرين. هذه هي الحكمة التي نبّهنا الله إليها حين أمرنا بالاستعاذة عند البدء في قراءة القرآن وعند ختامه في المعوذتين.

٣: هناك إشارة أخرى في الأمر بالاستعاذة قبل البدء في تلاوة القرآن وفي إنزال المعوذتين في ختامه، وهي أن على الإنسان أن يبدأ أمور دينه -فضلاً عن أمور دنياه- في ملاذ الله تعالى ويكملها أيضا في ملاذه تعالى؛ ذلك أن من المحال أن يستغني الإنسان عن نصرة الله وحمايته مهما تقدّمَ في أمور الدين ومعرفة الله تعالى. كان النبي ﷺ أفضل البشر، بل سيد الأنبياء، بل كان الغاية من خلق الكون، أي أن الله تعالى قد خلق الإنسان ليخلق في النهاية محمدا ﷺ، كما أشار إلى ذلك الحديث القدسي: " لولاك لما خلقتُ الأفلاك" (كشف الخفاء للعجلوني: حرف اللام، رقم ٢١٢٣)*، ولكنه ﷺ مع بلوغه هذه الدرجة العظيمة في قرب الله تعالى، كان يطيل القيام في صلاة التهجد حتى تتورم قدماه، حتى قالت له عائشة -رضي الله عنها- ذات مرة: يا رسول الله، لقد غفر لك الله ما تقدّمَ مِن ذنبك وما تأخّرَ، فلماذا ترهق نفسك في صلاة التهجد هكذا؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا؟

---

* قال الصغاني: إن هذا الحديث موضوع، ويقول العجلوني: لكن معناه صحيح وإن لم يكن حديثا. غير أن ما يؤكد صحة هذا الحديث هو أن الديلمي قد أخرج عن ابن عباس: أتاني جبريل فقال: يا محمد! لولاك ما خلقتُ الجنة، ولولاك ما خلقت النار. (كنز العمال: ج١١، رقم ٣٢٠٢٥). وقد قال صاحب هذا التفسير ﷺ في تفسير سورة الشعراء: "لا شك أن هذا الحديث إنما هو من طائفة الأحاديث التي قد رواها الصوفية فقط، ولا يعتبره المحدّثون صحيحًا، ولكن الوحي الذي نزل على المسيح الموعود - عليه السلام- قد أكد صحته حيث أوحى الله تعالى إليه أيضًا: "لولاك لما خلقت الأفلاك" (التذكرة ص ٥٢٥ يوم ٤ مايو/أيار ١٩٠٦، وحقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ١٠٢). (المترجم)

(البخاري، كتاب التهجد) يعني: لقد منَّ الله عليّ بكل هذه المنن، لذا تضاعفَ واجبي، وصار لزامًا عليّ أن أعبده وأشكره أكثرَ من ذي قبل.

وكذلك روت عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله، إننا بحاجة إلى العمل من أجل نجاتنا، أما أنت فقد كتب الله تعالى لك النجاة، فلماذا تشق على نفسك بفعل الخيرات؟ فقال: كلا، لن أنجو بعملي، إنما أحظى بالنجاة بفضل الله فقط●.

فثبت أن الإنسان لا يمكن أن يستغني عن حماية الله، مهما فعل الصالحات ومهما بلغ في الروحانية. فما دام النبي ﷺ يقول: إنني لا أنجو إلا بفضل الله تعالى، فمَن ذا الذي يدّعي بعده أنه في غنى عن رحمة الله تعالى، وليس به حاجة لفضله، وإنما يرتقي في الروحانية بقوة أعماله؟

ومع أن المسلمين قد أُمروا أن يظلّوا عاكفين على عتبة الله تعالى مستعينين به، إلا أن أحدهم إذا عمل الصالحات بضعة أيام، أصابه الكِبْر والزهو، وإذا صلّى بضعة أيام أخَذ يمنّ على الله تعالى، وإذا صام أيامًا ظنّ أنه قد أحسن إلى الله تعالى، وأن مِن واجب الله ﷻ أن يحقّق له الآن كل ما يريد، وإذا تبرع قليلاً ظنّ أنه قد صار له على الله حقّ، فيجب أن يخصّه بمعاملة مميزة، وإلا فهو ﷻ مخطئ -والعياذ بالله. هذه هي الأمور التي تدمر الإنسان، ومَن أُصيب بهذا المرض -مهما كانت مكانته عالية- حبطت أعماله وسقط في الحضيض. لذا فعلى المرء أن يستعيذ بالله دائمًا لكي لا يصاب بالكِبْر ولا يُحرَم نِعَم الله تعالى. الكبر يحرمه في البداية، بمعنى أنه إذا عُرض عليه شيء من الخير لم يُطِقْ سماعه، كما يهلكه في النهاية أيضًا، إذ يظنّ أنه قد بلغ من الروحانية ما أغناه عن عون الله تعالى.

● ورد في البخاري: كتاب المرضى، باب نهي تمنِّي المريض الموت، عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "لن يُدخِل أحداً عملُه الجنة". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "لا، ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله بفضل ورحمة". (المترجم)

كان "هُمايون" من الملوك المغول الشهيرين في الهند. وذات مرة كان عائدًا برفقة جيش عظيم بعد إلحاق الهزيمة بأسرة "سُوري" الأفغانية الحاكمة في البنغال، فنزل بجيشه على شاطئ نهر في منطقة "بِهار"، فرأى جنوده منتشرين في كل مكان فقال لغبائه: إذا أراد الله تدمير هذا الجيش، فيستغرق ذلك وقتًا. وكان جيش الأفغان المهزوم قادمًا وراء جيشه ببطء، ولكنهم ما كانوا يريدون الانتقام منه؛ إذ كانوا مرهقين ليس بهم قدرة ولا همة، وإنما كان بنيّتهم أن يقتلوا من وجدوه من جنود "همايون" مشردًا هنا وهناك، كما يفعل رجال الكوماندوز المسمّون الغوريلا –والغوريلا في الأصل نوع من القرود التي تُغير على حين غرّة– فهؤلاء أيضا كانوا يتتّبعون جيش همايون متخفين، ولكن لم يكن عندهم قائد، فما كان بوسعهم أن يغيروا إغارة واحدة. وكان همايون قد أخذ مَلِكَ الأسرة الأفغانية "شير شاه سوري" أسيرًا معه، وما إنْ تفوّهَ "همايون" بهذا الكلام السخيف حتى ثارت غيرته "شير شاه"، فقطع الحبال بقوة، وهرب ولحق بالكتيبة الأفغانية. لقد وجد الأفغان الآن قائدا، فتشاوروا ثم فاجأوا جيش "همايون" بغارة ليلية، فتشتّتَ جيشه وتبدّد، حتى نجا همايون بصعوبة. وكما يعلم المطّلعون على التاريخ أنه ألقى بحصانه في النهر، ولكنه وقع في دوامة فغرق، فأشرف "همايون" على الغرق، فأنقذه أحد السقّائين على وعد منه أنه يعطيه الحُكم لنصف يوم. ثم لم يستطع همايون البقاء في الهند، بل لاذ بالفرار إلى إيران (تاريخ هندوستان (بالأردو): همايون اور شير شاه سوري).

فسواء تقدّمَ الإنسان في الدنيا أو الدين، فإذا أصابه الكِبْر هَلَكَ، ولذلك قد أمرنا الله تعالى بالتعوذ في آخر القرآن، فكأنه تعالى قد أوصانا إنكم الآن قد ختمتم القرآن وتدبرتموه واستوعبتم معارفه وتقدمتم في الروحانية، فلا يصيبنّكم هذا بالشعور بالتفوق على الآخرين، لأنكم إذا استكبرتم هلكتم. لذا، إذا بدأتم أي عمل من أعمال الدنيا أو الدين، فضَعوا الله تعالى نصب أعينكم دائما، وإذا أتممتموه فانظروا إلى الله أيضا.

وإن في ذلك نبأً أن المسلمين سيصابون بالكبر في الزمن الأخير نتيجة الانتصارات التي يكتبها الله لهم، فتصيبهم أنواع البلايا والدمار، لذا فعليهم الإكثار من قراءة سورتي الفلق والناس، لكي يحميهم الله من الزهو والتباهي ووساوس النفس، فيحميهم من هجمات الأعداء.

وهناك أمر لطيف آخر، وهو أن الله تعالى قد وضع لفظ ﴿قُلْ﴾ قبل ﴿أَعُوذُ﴾، ويقول بعض من لا يتدبرون القرآن: لماذا جيء هنا بلفظ ﴿قُلْ﴾؟ كان يجب أن يقال مباشرة: "أعوذ بربّ الفلق". وحجتُهم أن القارئ إذا قال ﴿قُلْ﴾، فلا يتولد في قلبه حماس كما لو قرأ "أعوذ برب الفلق" مباشرة.

وكان حضرة المولوي عبد الكريم السيالكوتي* ﷺ إذا قرأ هذه السور في الصلاة جماعةً بالناس، يتوقف قليلا بعد ﴿قُلْ﴾، ثم يقول ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

والحق أن كلمة ﴿قُلْ﴾ لا تقلّل حماس القارئ، بل تزيده؛ ذلك أن إيراد ﴿قُلْ﴾ هنا يبين أن الرسول ﷺ هو أول المأمورين بالاستعاذة هنا، فلولا ﴿قُلْ﴾ هنا لظن القارئ أن الأمر بالاستعاذة موجَّه إليه فقط، لا إلى الرسول ﷺ. فكلمة ﴿قُلْ﴾ تنبيهٌ للذين قد يستهينون بحكم الاستعاذة هذا، فما دام الله تعالى يأمر رسوله ﷺ بالاستعاذة قائلا له: ﴿قُلْ﴾- أي: أعلنْ للناس أنني أستعيذ برب الفلق رغم بلوغي هذه المكانة السامية مِن قرب الله تعالى، ولست في غنى عن الاستعاذة به تعالى، بل أخرُّ أمام الله تعالى ليعيذني بملاذه دائمًا- فكم بالحريّ بأفراد أمته ﷺ أن يستعيذوا بالله تعالى. فثبت أن إضافة ﴿قُلْ﴾ هنا لم تقلّل الحماس بل تزيده، لأنه ما دام الله تعالى قد أمر أفضل البشر الذي بلغ ذروة الكمالات الروحانية أن يستعيذ به، فكم بالحريّ أن يستعيذ الآخرون بالله ﷻ؟

---

* كان ﷺ ثاني كبار صحابة المسيح الموعود عليه السلام، وقد سماه الله تعالى في وحيه للمسيح الموعود عليه السلام: "زعيم المسلمين". وهو الذي كان له شرف قراءة محاضرة حضرته ﷺ في مؤتمر الأديان العظمى بلاهور، التي قد نُشرت فيما بعد باسم "فلسفة تعاليم الإسلام". (المترجم)

وهناك سؤال آخر وهو: إن الاستعاذة بالله تعالى تعني: إلهي، إن الشيطان يتغلب عليَّ بسبب ضعفي وتقصيري فاحمني منه، وهذا المفهوم يماثل مفهوم الاستغفار، وكأن المستعيذ يعترف بذنوبه، ويسأل الله تعالى أن يغفرها له، أما النبي ﷺ فهو معصوم، وقد أعلن أن شيطانه قد أسلم. (مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان)، فما معنى استعاذته ﷺ بالله إذنْ؟

الجواب: أن الإنسان العادي إذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلا شك أنه يقرّ بذنوبه، أما استعاذة الرسول ﷺ فليست بهذا المعنى ألبتة، لأنه معصوم عن الخطأ، ولذلك قد بدأ الله المعوذتين بـ ﴿قُلْ﴾، تبيانًا أن محمدًا لا يستعيذ بالله تعالى بسبب آثامه، وإنما امتثالاً لأمر الله تعالى، حتى لا يستطيع الشيطان الكيدَ به وبجماعته في المستقبل.

اعلمْ أن كل نبي حريصٌ على أمته حِرْصَ الراعي على غنمه، وكما أن الراعي يلقي نفسه في الخطر أحيانًا لإنقاذ غنمه، كذلك يفعل النبي لغنمه أيضًا، فيستعيذ بالله تعالى كي يحميها من هجمات الشيطان. إن الشيطان لا يشكّل الخطر على النبي، ولكنه يهدّد غنمه حتمًا. فالنبيّ يستعيذ لرد هجوم الشيطان عليه بطريق غير مباشر، لأن الهجوم على أمته هو بمثابة الهجوم عليه؛ فثبت أن استعاذة النبي ﷺ مختلفة عن استعاذة الآخرين.

لقد وردت كلمة ﴿أَعُوذُ﴾ في بداية سورتي الفلق والناس، مما يعني أن كلتيهما تعلّم الإنسان الاستعاذةَ بالله تعالى. وهنا ينشأ سؤال تلقائي: ما دامت كل من هاتين السورتين تشتمل على موضوع واحد، فلماذا لم يجعلهما الله تعالى سورة واحدة؟

اعلمْ أن سورة الفلق تعلِّم الاستعاذة من شرّ المخلوقات الأخرى غير الإنسان عمومًا، أما سورة الناس فتعلّم الاستعاذة من شرور تبدأ من الناس عموما، وواضح أنهما موضوعان منفصلان، ولذلك ذُكِرا في سورتين منفصلتين.

قال الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. والرب مَن يربّي الإنسان ويطوّره حتى الكمال، أما الفلق فقد ذكرنا له سبعة معانٍ عند شرح الكلمات وكلها تنطبق هنا.

١: وأوّل معاني الفلقِ الصبحُ، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يعني: قل أعوذ برَبِّ الصبحِ.

لقد بيّنتُ في بداية تفسير سورة الفلق أن لها علاقة بسورة النصر، التي قد بيّن الله فيها أن أساس فتوحات الإسلام وانتصاراته الذي وُضع بيد الرسول ﷺ، سيظلّ يرتفع حتى يكتمل، وإذا حال عائق في طريقه فسوف يزيله الله تعالى كليةً. أما سورة الناس؛ فقد نبّه الله فيها المسلمين أنْ يا أيها المسلمون، ادعوا الله تعالى أن يكمل صرح غلبتكم ويديمها، فلا يقدر عدو على الضرر بهذا الصرح، أو أن تصابوا بالفُرقة، فلا تستطيعوا حماية هذا الصرح.

لقد مكث النبي ﷺ في مكة بعد الدعوة ١٣ عاما، وكانت تلك الفترة تشبه الليلة لما فيها من مصائب وعقبات. وبعدها هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فبدأ فجر نجاحه، حيث أخذت آثار غلبة الإسلام تنجلي من جهة، ومن جهة أخرى قلّت الصعاب والشدائد. لا شك أن بياض هذا الصبح لم يكن واضحا تماما، وما كان بوسع ضعيف البصر أن يراه، إلا أن حديد البصر كان يراه ويستبشر بطلوع ضوء الشمس بعد قليل، فيراه الجميع وهو ساطع في كبد السماء. لقد طلع فجر المسلمين بعد الهجرة من المدينة، وكانوا يرونه ويدركون أن ضوءه سينتشر في الأفق، ولكن عيون المعارضين كانت قاصرة عن رؤيته، وأخيرًا أخذ هذا الضوء في الظهور، وبدأ المسلمون ينالون الغلبة حتى فُتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة، ونوَّر الإسلام العرب بنوره، ورأى الجميعُ صبحه. وإشارةً إلى ذلك الوقت، يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعيذ ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ويأمر كل فرد من أمته أن يستعيذ به ﷻ، أي أن من واجبه ﷺ أن يدعو الله تعالى من ناحية أن لا تزال شمس الإسلام ترتفع وترتفع حتى تضيء في كبد السماء وتبهر العيون، ومن ناحية أخرى أنْ يحميهم الله تعالى في زمن الازدهار هذا، لكي لا يصابوا بالانحطاط. لما كان القرآن يخاطب المسلمين من ناحية، والكافرين من ناحية أخرى، فهذه الآية إذ كانت تبشيرًا للمسلمين، فإنها تحذير للكافرين -إذ كانوا يقولون دائما إذا كان محمدٌ شمسًا فأين ضياؤه- بأن

ضياء شمسه على وشك الانجلاء، وسوف يتسبب في انكشاف كل العلوم الروحانية والمادية التي كانت في طيّ الكتمان من قبل، وظهورِ شتى عيوب الناس الخفية تحت حجب الظلام، وسوف يحرز الناس الرقي المادي الذي لم يحرزوه من قبل. فإننا نرى أن الشمس عندما تطلع يتولد عند الناس إحساس بالصحوة، فيشتغلون بشتى أعمالهم من أجل رقيهم، كما تنكشف للعيون عيوب الأشياء ومحاسنها، إذ لا فرق بين جميل ودميم في ظلمة الليل، ولا تستطيع أن تفرّق بين الأحمر والأسود والأصفر والأزرق وغيرها من الألوان، أما إذا طلعت الشمس فترى دمامة الدميم وجمال الجميل، وتُميِّز بين الأحمر والأسود وغيرهما من الألوان. فالله تعالى ينبّه هنا أنه باكتمال القرآن الكريم سوف تطلع الشمس الروحانية الآن، فتزداد العقول ذكاء وينكشف للناس حسن الأشياء وقبحها، فتُفتح أبواب الرقي على مصاريعها على الذين ينتفعون بهذه الشمس، وينال المسلمون الحُكم والعزة والجاه، ويحرزون الرقي في التجارة والصناعة والحرف وغيرها من مجالات الحياة. غير أن على المسلمين أن يتذكروا أنه إذا كان الضوء مصحوبا بالبركات، فإنه يجلب بعض الآفات أيضا، فهو لا يجلب للإنسان النفع فقط، بل يجلب الضرر أيضا، إذ يغريه زخرف الحياة ويحاول إغواءه، فطلوع شمس غلبة الإسلام قد يكشف كثيرًا من نقائصهم وعيوبهم؛ لأن الرقي المادي يدفع إلى الركون إلى أسباب الراحة والرخاء والترف، فيميل الإنسان للاستمتاع بها بشكل خاطئ، كما أن إحرازه العلوم الروحانية مع حرمان الآخرين منها قد يصيبه بالكِبْر والعُجب؛ مما يعني أن أخطارا روحانية ومادية أيضًا تهددكم إبّان الغلبة، فالرقي في العلوم الروحانية قد يدفعكم إلى الزهو والعجب، والرقي المادي قد يدفعكم إلى البذخ، لذا نأمركم: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي أن الصبح سيطلع حتمًا، وسيحرز المسلمون الرقيَّ ماديًا وروحانيًا، وستطلع شمس غلبتهم يقينًا، ولكن هناك خطر أن يؤدي هذا الرقي إلى نتائج مدمرة، فليس السؤال كيف يحرز المسلمون الرقيّ، وإنما نخاف عليهم أن يقعوا في شتّى البلايا نتيجة الازدهار، ولذلك نعلّمهم أن يستعيذوا بالله تعالى مِن شر كل هذه الأشياء التي خلقها.

إذن، فقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إشارةٌ إلى أن المسلمين سينالون كل هذه النعم، إذ إن الله تعالى قد حثهم هنا على الاستعاذة من شر كل شيء، والواضح أن المرء إنما يحتاج الاستعاذة من شر كل شيء إذا كان ميسَّرًا له، فالذي لا يأكل اللحم مثلاً فهو ليس بحاجة إلى تناوُل ما يحميه من ضرر اللحم، فثبت أن قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني أن المسلمين سينالون كل ما خلق الله من نعمة في الدنيا، ويكون رقيهم واسعًا متنوعًا، ولذلك أمَر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يبدأ في الدعاء لهم من الآن لكي يحميهم الله تعالى مما تكتنفه هذه النجاحات والترقيات والنعم مِن شرور وبلايا.

واعلمْ أن قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ دعاءٌ من أجل الكمال الفردي، بالإضافة إلى الكمال الجماعي أي كمال الأمة؛ ذلك أن الرب هو مَن يطوِّر الإنسان تدريجيا حتى الكمال، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يعني أن يدعو الإنسان ربه قائلا: يا ربي الذي يأتي بالضوء بعد الظلام، أَخْرِجْنِي من الظلمة إلى النور، ذلك أن الضوء يسطع في الظلام مبدِّدًا حجبه، ثم يزداد إنارةً حتى تطلع الشمس لتصل إلى كبد السماء. إذن، فإن الله تعالى قد علّم هنا الإنسان أن يدعوه: يا ربي الكامل في ذاته، ويا مَن زوّد الإنسان بكل الكفاءات اللازمة لرقيّه، وعلّمه كيف يكمل نفسه باستعمال هذه الكفاءات في محلّها، وَفِّقْني لإحراز الكمال بفضل ربوبيتك، حتى أضيء في الدنيا كما تضيء الشمس في نصف النهار، واحفظْني من كل مصيبة وشرّ، فلا يمنعني مانع من إحراز الكمال.

٢: ومن معاني الفلق الخَلْقُ كله، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يعني: قُلْ إني أستعيذ بالله، الذي هو رب المخلوقات كلها.. أي أنه خالق كل صغير وكبير من الأشياء.

لقد استعمل الله تعالى هنا كلمة ﴿الفَلَق﴾ بمعنى المخلوقات بدلاً من "الخَلْق"، لأن الفلق أشمل معنى من الخَلق، فالخَلق يدل على إيجاد الشيء فقط، أما الفلق فيدل على إيجاده وتطويره، ثم إن من معاني الفلق أَخْذ الشيءِ من الظلام إلى النور، ومنه

سمي الصبح فَلَقًا؛ فلو استعمل الله تعالى هنا "الخَلْق" مكان ﴿الفَلَق﴾ لما تمّت الإشارة إلى هذا المعنى الإضافي، ولكن الله تعالى قال ﴿الفَلَق﴾، فبيّن أن الإنسان يكون في حالة أدنى، فيطوّره الله تعالى ويجعله أعلى. إذن، فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ قد أدّى مفهومين، أوّلهما: أن الله تعالى أمَرنا بالاستعاذة به، وثانيهما: أنه تعالى بيّن لنا سبب الاستعاذة به.. أي أنه تعالى بيّن لنا أنكم ستستعيذون بمن هو خالق الأشياء ومالكها، والقادر على حمايتكم من ضررها وعلى تطويركم إلى أرقى مقام، إذ هو الرب الذي يطور الأشياء من حالة أدنى إلى الكمال.

وقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إشارةٌ إلى أنه ليس في الدنيا شيء لا يمكن أن يتولد منه الشرّ. يظن الناس عمومًا أن بعض الأشياء جيدة وبعضها حسنة، لكن القرآن الكريم يبطل هذا التصور، فيخبر أن كل شيء حَسَنٌ وسيئٌ أيضا، وليس هنالك ما هو حسنٌ خالٍ من الشر، ولا ما هو سيئ خالٍ من الخير. خُذْ مثلا الفقر والغنى، فالغنى يصبح شرًّا من دون فضل الله تعالى، والفقر لا يصبح شرًّا مع فضل الله تعالى؛ فكم كان سليمان عليه السلام يملك من أموال وخيرات، حتى أعلن بنفسه أن الله تعالى قد رزقه بغير حساب، ومع ذلك ظلتْ ثروته خيرًا له ولم تسبّب له شرا، كذلك كان عديد من الصحابة أثرياء جدا، فقد ورد أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ترك عند وفاته مالاً وعقارا بلغ ٢٥ مليون روبية –مع أنه لم يكن أثرى الأثرياء بينهم كما قالوا– إلا أن ثراءه لم يسبّب له أي شرّ. ثم كان الصحابة من قبل في فقر شديد، ولكنه لم يسبب لهم الشرّ، مع أننا نرى أن الفقر هو الذي يجعل الناس لصوصًا وقطاع طرق. فالحق أن الشيء يصبح شرًّا للإنسان إذا خرج من حماية الله وحفظه، ولذلك علّمنا الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، أي: لا تقولوا رَبِّ هذا شرّ فادفَعْني عنه، أو هذا خير فائتني إياه، لأنه ليس في الشيء السيّئ من سوء ولا في الشيء الحسَن من حُسْن، إلا بسبب بُعْده عن ملاذ الله تعالى أو قرْبه منه؛ فإذا لم يدخل الإنسان في ملاذ الله تعالى صار الشيء الحسن شرًّا له، وإذا كان في ملاذ الله تعالى أصبح الشرُّ خيرا له. فكم هو جميل أن يكون الإنسان عالمًا بكتاب الله! ومع ذلك قد قال الله تعالى عن علماء اليهود إن مثلهم ﴿كَمَثَلِ

الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٦). وكم يبلغ الشيطان من الشر! ومع ذلك أعلن الرسول ﷺ أن شيطانه قد أسلم، فلا يأمره إلا بخير. وليس معنى قوله ﷺ إلا أن كل ما يلقيه الشيطان في قلبه ﷺ يتحول خيرًا بعد دخوله فيه.

إذن، فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تنبيهٌ للإنسان إلى ضرورة الاستعانة بالله تعالى وطلب حفظه، حيث علّمَنا أنكم إذا أردتم النجاة مما في المخلوقات من شرّ، فإن الله وحده سوف يحميكم منه، لأنه رب هذه المخلوقات كلها، وهو الأعلم كيف يَنتج الخير من كل شر؛ إذ لا يتحرك أي مخلوق من دون إذنه.

ومن معاني قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قُلْ إنني أستعيذ بخالق المخلوقات من العيوب التي يُصاب بها أي مخلوق عند خلْقه، فتعيق رقيّه وكماله. إننا نرى أن هناك ثلاثة أسباب لفساد الشيء وشرّه: ١: العيب الذي يصيبه عند ولادته، ٢: العيب الذي يصيبه عند نهايته، ٣: العيب الذي يصيبه بفساد الأحوال التي تمر بها حياته ما بين خلقه ونهايته. فبقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قد علَّمنا الاستعاذة من العيب الذي قد يصيب الإنسان عند ولادته؛ لأن العيب الذي يصيبه عند خلقه قد يدمره، ويحول دون تحقيق بُغْيته. فالقلم مثلاً إذا لم يُصْنَعْ جيدًا فلن يستطيع أحد أن يكتب به كتابة رائعة، كذلك البيت الذي لم يُبنَ سقفه جيدًا، سيقطر منه المطر ولن ينعم ساكنه بالراحة، والثوب إذا صُنع دافئا مكان البارد أو باردا مكان الدافئ، فلن تستفيد منه شيئًا، والفرس إذا كان ضالعًا فلن تكمل به السفر. فثبت أن العيب الذي يصيب الشيء عند خَلْقه يمنعه من تحقيق الهدف المرجوّ منه، ولذلك علّم الله ﷻ الإنسانَ أن يدعوَه: رب، إني أعوذ بك من كل عيب أو نقص أصابني عند خلقي؛ ذلك أن الإنسان يرث سوء أعمال الوالدَين عند ولادته، فيميل طبعه إلى ما كان آباؤه يرتكبون من منكرات، ولذلك أمر الرسول ﷺ كلاًّ من الزوجين أن يدعو عند لقائهما: "اللهم جَنِّبْني الشيطانَ وجَنِّب الشيطانَ ما رزَقتنا" (البخاري: كتاب النكاح). فالإنسان يصاب ببعض المساوئ وراثةً، كما نرى أن الأولاد –عادةً– يرثون من قامة الوالديْن وعِلْمهم وهمّتهم وأفكارهم،

فأولاد السارقين يميلون إلى السرقة عمومًا، والكاذبين إلى الكذب، وأولاد المسلول يصابون بالسلّ. والتجربة تؤكد أن الأسَر التي يبقى فيها العلم طويلا يتعلم أطفالُها العلم بسرعة، وأن الذين يطالعون كثيرا تكون عيون أولادهم واسعةً نسبيًّا، وما هو إلا تأثير علم الوالدين وعادة مطالعتهم. فثبت أن المرء يرث كثيرًا من العيوب والمحاسن من أبويه. وإذا ورث الولد بعض العيوب من والديه سببتْ له عراقيل كثيرة في سباق الحياة، ولذلك علمنا الله تعالى أن نقول ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ .. أي يا مَن خلقتَني وتربّيني، احْمِني من مغبة أي عيب بقي في خلْقي بتأثير الأبوين -أو بأي سبب آخر- لكي أفوز برضاك وقربك.

باختصار، إن هذه الآية تعلّمنا الاستعاذة من النقائص التي يرثها الإنسان خَلْقًا.

ثم إن الله تعالى قد بيّن بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أن الإنسان جزءٌ من المخلوقات الأخرى.. أعني أن الله تعالى قد ركّبه من كلّ ما يوجد في الكون من جماد ونبات وحيوان، وأن جذوره متشعبة في هذه الثلاثة كلها وإنما هو خلاصتها وثمرتها؛ فإذا لم يستمدّ غذاءه من هذه الثلاثة لما عاد إنسانًا. فالعنب مثلاً ينبت من التراب، وإذا قلعتَ جذوره من التراب لم يعُدْ عنبًا، إذ لا بد لنموّه وازدهاره مِن نَبْتَتِه ومن تراب، فإذا لم يوجد التراب لم يعُد للعنب وجود، وإذا كان هناك تراب فقط دون نَبْتَةً العنب لم يعُد للتراب قيمة. كذلك لولا خَلْقُ الإنسان من خلاصة هذه النباتات والجمادات والحيوانات لم تعُدْ ذات قيمة، مثل التراب الذي يصبح عبئًا بلا قيمة مِن دون ثمار العنب والشمام والمانجو وغيرها. فالذين يظنون أن بوسعهم الارتقاء بالناس في الروحانية بتحريم الطيبات عليهم ومنْعِهم من سدّ حاجاتهم الفطرية التي جُبلوا عليها، فهُمْ ينسوْن أن الطيبات هي التربة التي تنبت فيها شجرة الروحانية وتنمو وتزدهر وتثمر. إن هذا ما يعلّمه الإسلام، إنه يعلن أن الإنسان ثمرة الخلاصة التي أُعدَّت من الجمادات والنباتات والحيوانات؛ ومن المحال أن تنمو شجرة الإنسانية إلا بالأخذ في الاعتبار أن جذورها متأصلة في هذه الثلاثة كلها، أما بدون ذلك فلن تبقى الشجرة الإنسانية مخضرّة. لقد نبّهَنا الله بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إلى أن

الإنسان جزء من المخلوقات، وليس في معزل عن الجمادات والنباتات والحيوانات، وإلا لما أمَرنا الله تعالى بالاستعاذة به من شرها. فقوله ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يكشف أن من الممكن أن يصيبنا شر أو خير من كل هذه الأشياء التي جذورنا متأصلة في تربتها، فإذا أردنا الرقيَّ فعلينا أن ندعو الله تعالى أن يحمينا من شرها، وأن نضع في الحسبان دائمًا وجودنا هذا الجمادي والنباتي والحيواني، فكما أن الشجرة لا تبقى مخضرة مثمرة ما لم تُسْقَ جذورها بالماء، كذلك لا يمكن أن يصل الإنسان أعلى درجات الروحانية من دون أن يستعمل الطيِّبَ من الجماد والنبات والحيوان، وما لم يتّقِ ما فيه من شرّ. لقد علّمنا الله تعالى هنا علاج الأمراض التي يمكن أن تصيبنا من الجذور، ذلك أن الشجرة تُصاب بالأمراض من جذورها حينًا ومن أوراقها حينًا.

باختصار، لقد أُمرنا هنا أن نستعيذ بالله الذي خلق المخلوقات كلها لكي نستمتع بخيرها ونتقي شرّها، وهذا محال لنا من دون أن يساعدنا خالقها.

ثم إن الله تعالى قد نبّه بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ كلَّ فردٍ من الأمة إلى أمر هام آخر، وهو أن الله تعالى قد أعطى المسلمين في السورة السابقة (الإخلاص) درْس التوحيد الكامل، أما في هذه السورة فكأنه تعالى قال: يا مَن آمنتَ بنا وبكلامنا ولا سيّما بقرآننا، اذهبْ وأعلِنْ إيمانك بين الناس، وقُلْ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي: أيها الناس، إنكم تثقون بآبائكم وأقاربكم وأصدقائكم وعشائركم وأحزابكم وجيرانكم وزعمائكم وحكوماتكم وجيوشكم ومعلّميكم الذين ينقذونكم من الجهل، وأطبائكم الذين يعملون على الارتقاء بمستواكم الصحي ساعين لحمايتكم من الأمراض، ولكني لا أثق بأيٍّ من هؤلاء، بل ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فقد أعرضتُ عن كل هذه الأشياء، وإلى رب الفلق توجهتُ وعليه توكلت. إذن، فقوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ قول وجيز، إلا أن قائله يتحدى العالم كله، جاعلاً الناس كلهم مراقبين لأعماله؛ فإذا حضر مجلسًا قال: إني لا أكترث ولا أثق بالدولة ولا بالآباء ولا بالإخوان والأخوات ولا بالأقارب والأصدقاء، ثم إذا حضر في مجلس آخر أعاد الكلام نفسه -إذ هو مأمور بترديده دائمًا كما تدل عليه كلمة ﴿قُلْ﴾- فيعلن للحضور: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي:

أنني قد سلّمت نفسي لخالق المخلوقات كلها، فلم أعُدْ أتوكل على الأسباب المادية، ثم يعيد الكلام نفسه في المجلس الثالث والرابع وهلمّ جرّا، فيصبح كل إنسان مراقبا لأعماله بعد قيامه بهذه الدعوى الكبيرة، فلو ذهب بعدها إلى مسئول حكومي وسلّم عليه واستعان به على مشاكله، فلا بد أن يعاتبه القوم قائلين: لقد قمت بتحدٍّ كبير، وها قد فشلتَ في العمل به. فكأن الله تعالى قد علَّم كل مسلم بوضع كلمة ﴿قُلْ﴾ هنا أنك قد تعلمتَ منا التوحيدَ الخالص، فاذهبْ الآن وأعلِنْ في كل نادٍ أنك قد أصبحت في غنى عن الدنيا وأهلها، ودخلتَ في ملاذ الله تعالى، ليصبح كل إنسان رقيبًا على تصرفاتك، حتى إذا خالفتَ قولك بعملك كذّبك الناس ولاموك بأنك تقول ما لا تفعل، فقد كنت تدّعي بتسليم نفسك إلى ملاذ رب الفلق، ولكنك حين مرضتَ أو مرض قريبٌ لك، أو تراكمَ الدَيْن عليك، أو غضب المسئول عليك، أو سخط الأستاذ عليك، أصابك الهلع وأخذت تصرخ وتبكي. لقد كنتَ تدّعي أنك مؤمن بتوحيد الله الخالص، ولا تبالي بأحد سواه ﷻ، فلماذا تخاف الآن عند حلول مصيبة من مصائب الدنيا؟ هذا هو الهدف من إيراد كلمة ﴿قُلْ﴾ هنا؛ ذلك أن الإنسان إذا توجّهَ إلى الله تعالى وقال له: ربّ، قد ألقيتُ نفسي على بابك قاطعًا علاقتي مع كلّ الناس من أقارب وغيرهم، وأصبحتُ في غنى عن كل ما سواك، فإن الله تعالى يقول له: لا تقُلْ لي هذا الكلام، بل اذهبْ وقُلْه للناس واجعَلْهم شهداء على ذلك، حتى إذا تصرفتَ خلافه كذبوك لائمين بأنك تقول ما لا تفعل.

فكأن الله تعالى يقول للمؤمن هنا بأنك قد قرأت الآن القرآن كله، وقد رسخ الإيمان في قلبك بقوة، فلا يجوز لك الآن أن تبقيه خفيًّا، بل لا مناص لك من أحد الاثنين: فإما أن تعلن على الملأ ما تقوله لنا، وتجعل الناس شهداء بل قضاةً عليك، حتى إذا تصرفت خلافه عاتبوك، وإما أن تتخلى عما تدّعي به أمامنا في انفراد قائلاً في صلاتك: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فإن دعواك هذه تعني أنك قد قطعت صلتك عن كل مخلوق، وأصبحتَ على صلة مع الله تعالى، فلا تعتمدُ الآن على الوالدين والإخوة والأخوات ولا الأصدقاء ولا المعارف والأقارب ولا القبيلة ولا الحكومة،

ولكن مصداقية هذه الدعوى لن تتضح عليك إلا إذا جعلتَ الناس شاهدين عليها. ومن بلغ هذا المقام العظيم فعلاً، فأنَّى له أن يقرّ له قرارٌ ما لم يصدِّق دعواه بفِعاله؟

يأتيني بعض الناس ويقول: ادعُ لي ليحقّق الله لي كذا، وأنجح في عمل كذا، ثم يقول أيضا: وأرجوك أن تشفع لي عند فلان بهذا الصدد إنْ أمكن. والحق أن مثل هذه الشفاعة مع الدعاء تتنافى مع التوكل على الله، بل إنّ المؤمن يتمنى أن يذوب خجلاً في مثل هذا الموقف؛ لأنه إذا صار على صلة مع الله تعالى فينبغي ألا يعتمد بعدها على حاكم أو برلمان أو جيش أو دولة أو مسئول.

فالمؤمن يمكن أن يدّعي أمام الناس أن يده في يد الله، ولكنه لو توسّلَ بعدها إلى أحد سواه بإصرار كي يساعده في تحقيق مطلبه، فليس هناك مَن هو أكثر منه ذلاً وهوانًا. لا شك أنه إذا استعان بمن له عليه حقوق، عملاً بأمر الله بالأخذ بالأسباب، فهذا ليس إثما، إنما الإثم أن يتّكل على شفاعة شافع ويطلبها بإصرار، وإذا لم يتحقق له ما أراد، أصابته صدمة.

كان "المولوي إمام دين" -والدُ القاضي ظهور الدين أكمل- شديدَ الشغف بالتصوّف، وكان مريدًا لبعض الصوفية قبل انضمامه لجماعتنا، وكان كلما وجد فرصة قال لي: إن فلانًا من الصوفية قد أخبره أنه قد سجد على العرش، وفلانًا قد سجد على السماء، وفلانا رأى الله تعالى في السجود، ولكن لا نرى هذه الكرامات في الأحمدية! فكنتُ أجيبه بأدلة كثيرة، ولكنه يأتيني بعد كل سنة أو نصفها ويعيد السؤال نفسه، حتى فهّمني الله تعالى جوابه، فقلت له: ألا ترى أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم يسجدون على العرش أو على السماء هم أقلُّ درجة من المسيح الموعود عليه السلام؟ قال: إني أؤمن أن في الأحمدية كل بركة، ولكن السجود على العرش شيء عظيم! قلت: إذا كان هؤلاء يسجدون على العرش، فيجب أن يكون هناك دليل على علاقتهم بالله تعالى؛ فإن المرء لا يخذل صاحبه وإن لم تكن بينهما صداقة حميمة؛ ألا ترى كم كان المسيح الموعود عليه السلام مثقلا بالأعباء، فكان يأكل من دار ضيافته عشرات من الضيوف يوميا في أول أمره، وفي الأخير مئاتٌ، حتى بلغت نفقات الضيافة ما بين ١٥٠٠ إلى ٢٥٠٠ روبية شهريا، ولكن لم يكن

عنده مورد دخل ثابت. لا شك أن أبناء الجماعة كانوا يتبرعون، ولكنه لم يكن دخلا ثابتا، ومع ذلك انظر كيف كان توكُّل المسيح الموعود عليه السلام على ربه، وكيف كان الله تعالى يسدّ حاجاته التي تكلفه أموالاً كثيرة. هل ترى أن هؤلاء المتصوفة الذين يسجدون على العرش قد بلغوا هذا المقام من التوكل؟ فبدأ يفكر لبعض الوقت ثم قال: اليوم فهمتُ الأمر، فادعاؤهم بالسجود على العرش خدعة كله، لأنه عندما يأتي وقت الحصاد يقول هؤلاء الساجدون على العرش لأصحاب الزروع: لا تنسَ أن تبعث لي نصيبي من المحصول. فقلت: هذا هو الفرق بين المتوكل الصادق والمتوكل الكاذب.

فالمؤمن يتوكل على الله في كل حال، وعندما يقول للناس إنني ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فلا ينظر بعدها إلى العباد، بل يثق بالله تعالى وحده. وأمامنا مثال المسيح الموعود عليه السلام، إذ لم يكن يدري أيأتيه المال غدًا أم لا، ولكنه كان ينفق بلا تردد، والله تعالى لم يضيّق عليه بفضله. فالحق أن المؤمن لا ينظر إلى العباد، بل يتوكل على الله وحده، ثم الأمر متروك لله تعالى الذي يختار في أن يمتحن عبده بالجوع والفاقة، أو بالرخاء. ورد عن الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمة الله عليه- أنه كان يتناول أفضل الأطعمة ويلبس أفخر الثياب، إذ كان ثمن ثوبه الواحد يبلغ ألف دينار أحيانًا، وكان بعض الحمقى يعترضون عليه، فكان يجيبهم: إني لا ألبس أي ثوب إلا بعد أن يأمرني الله تعالى قائلا: يا عبد القادر، أستحلفك بوجهي أن تلبسه. (گلدسته كرامات، ص٨٠)

فالتوكّل يعني أن يصبح العبد لله تمامًا، ولذلك يأمرنا الله تعالى هنا ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي قُلْ: لقد أصبحتُ الآن لله تعالى تمامًا، فلا أبالي بالناس، فإذا عارضوك وآذوك فقُلْ لهم: إنني لا أبالي بأذاكم وأستعيذ منه بربي.

٣: ومن معاني الفلق جهنمُ، فعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني: أطلب ملاذ اللهِ تعالى خالِقِ جهنمَّ من شدائدها.

لقد قال الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن: ٤٧).. أي أن لعباد الله جنتين؛ جنة في الدنيا وجنة في الآخرة.

ثم إن النظام الذي يقيمه الله تعالى على يد نبيه في الدنيا يسمى جنة أيضًا، كما قال الله تعالى ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(البقرة:٣٦).. أي: عليك أن تعيش أنت وأتباعُك بحسب هذا النظام الذي أمركم الله به، فتصبح هذه الدنيا جنّةً لكم. ولقد نبهنا الله تعالى بذكر قصة آدم عليه السلام في القرآن إلى أن محمدا ﷺ أيضا آدم عصره، وأنه تعالى قد أقام على يده ﷺ نظامًا مَن عمل به دخل الجنة في هذه الدنيا وعاش براحة وسكينة. فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تنبيه للمسلمين بأن الله تعالى قد أدخلهم -أفرادا وجماعةً- في الجنة بإنزال القرآن وبعثة محمد ﷺ، كما قال الله تعالى ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾(آل عمران: ١٠٤)، أي: لقد أنزل الله عليكم السكينة والطمأنينة، وجمعكم على يد واحدة، وجعل بينكم وُدًّا حتى أصبحت الدنيا جنةً لكم، وفزتم بوصال الله تعالى واطمأنت به قلوبكم، فاذكروا هذه النِّعم الربانية، واستعيذوا بربّ جهنم من شدائدها حتى لا تمسّكم.. أي حتى لا تُحرموا السكينة أفرادًا وأمةً.. فلا تنشب بينكم الخصومات والحروب، ولا تُعرضوا عن أحكام القرآن الكريم، فتصبح الدنيا لكم جحيما، وتروا في الآخرة أيضا جحيما.

٤: ومن معاني الفلق: المطمئنُّ من الأرض بين ربوتين؛ وفيه إشارةٌ إلى أن بعض الأمم تميل إلى الإفراط وبعضها إلى التفريط، مع أن الطريق الحقيقي للفوز بقرب الله والأمنِ والسكينة في الدنيا هو الاعتدال والوسطية، ومن أجل ذلك قد سمى الله المسلمين أمةً وَسَطًا.. أي أُمّةً لا إفراط في تعليمها ولا تفريط. ولا جرم أن مثل هذه التعاليم هي الأفضل، وفيها ضمان السلام في الدنيا، ولذلك يأمرنا الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، أي: قولوا أيها المسلمون، إننا نستعيذ بالله الذي خلق بين الجبلين سَهْلَ الإسلام الجميل، لكي تنعم الدنيا بالراحة والسكينة. وكأن الله تعالى قد أمرنا أن نقول: نستعيذ بالله الذي أنزل لنا أفضل دين

كالإسلام، وأرسل لنا أفضل رسول كمحمد ﷺ، الذي أعطانا بواسطته أكمل تعليم كالقرآن الكريم، فندعو الله تعالى ألا يصيبنا شرٌّ بشأن هذه التعاليم الرائعة، فننحرف عنها معرضين عن الإسلام، تاركين أهداب محمد ﷺ، فندفع أنفسنا إلى المصائب والشدائد، فتصبح علينا الحياة صعبةً.

ثم إن قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إشارةٌ إلى أن أفضل سبيل لوصال الله والاستفاضةِ من فيوض ربوبيته هو الاعتدال، ومن المحال أن يحظى بوصال الله تعالى بالإفراط أو بالتفريط، نعمْ، إذا اتبع الطريق الوسط بينهما أمكنه وصال الله تعالى. غير أن هناك آلاف العقبات في طريق الوصال الإلهي، بل الحق أن كل ذرة في الدنيا تقف عقبةً في هذا السبيل. إن الذين يفشلون في الوصول إلى الله تعالى إنما يفشلون لأنهم يظنون أنهم قد تخطَّوا كل العقبات في طريقهم، مع أنه يوجد هناك عقبات أخرى لم تخطر ببالهم بعد. إنما يحظى بوصال الله تعالى من يدرك أن كل ذرة في الدنيا تسعى لإغوائه عن الله تعالى، فيأخذ الحذر كله في هذا الشأن من كل شيء؛ من زوجته وابنه وأستاذه وتلميذه وماله وعقاره ومكانته وعزته وما فعله وما لم يفعله، ذلك أن الإنسان يفشل حينًا بسبب ما فعل وحينًا بسبب ما لم يفعل، وتارةً بسبب ما يعلم وتارةً بسبب ما لا يعلم. فطالب الفلاح إنما هو ذلك الذي يخرّ على أعتاب الله تعالى قائلا ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.. أي: رب، إني لا أعلم أين يتربص بي الهلاك في سبيلي إليك، وما هي العراقيل التي تنتظرني في سلوكي إليك، فأسألك يا خالق الأشياء كلها أن تقيني شرها كلها، فإنك تعلمها وتعلم شرَّها. فأول درجة في سلّم الارتقاء إلى الله تعالى أن يخاف الإنسان كل ذرة في الكون، بل يخاف نفسه هو ويستعيذ بالله من شرها. ثم إن المؤمن لا يخاف فقط على إيمانه الكِبْرَ الذي يهلك صاحبه، بل يخاف قرب الله أيضا، لأن فيه أيضا مقتل الإنسان، كما حصل مع بلعام بن بعور، وقد نبّه النبي ﷺ إلى هذا الخطر إذ دعا ربه وقال: "لا مَلْجَأَ ولا منجا منك إلا إليك" (البخاري: كتاب الوضوء).. أي: رب، لا ندري ما إذا كان الهلاك سيحلّ بنا في الطريق الذي سلكناه للوصول إليك، فلا سبيل لنجاتنا إلا أنت، فاحمِنا بملاذك.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يكشف لنا أن على الإنسان أن يخاف كل ذرة من الكون، إذ لا يعلم ما الذي سيهلكه، وعليه فيجب أن يستعيذ بخالق الأشياء كلها.

٥: ومن معاني الفلق: مقطرةُ السجّانِ.. وهي خشبة فيها خروق على قدر سعة الساق، تُدخل فيها أرجل المسجونين، فيتمّ حبسُهم على قطار واحد، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني أنني أستعيذ بمالك السجون مِن أن أُسجَن وأكابد شدائد السجن. وكأن الله تعالى قد علّمنا هنا دعاء جماعيا وفرديا.. فالدعاء الجماعي هو أن يحمي الله أمة الإسلام من التخاصم والتحارب حتى لا يُلقي بعضهم بعضًا في شدائد السجن، أو يزحفَ على الدولة الإسلامية عدو فيدمرها ويذيقَ المسلمين ويلات السجن والقيد ويسلبَ راحتهم وسكينتهم. أما من الناحية الفردية فقد أمرنا الله تعالى أن يدعو كلٌّ منا دائمًا ألا يرتكب – عمدًا أو سهوا– ما يدفعه إلى مكابدة شدائد القيد والسجن؛ إذ لا يمكن أن يُنقِذه منها إلا الله المتصرفُ في القلوب والحاكم الحقيقي، فلو تعرض الإنسان –لا قدّر الله– لمثل هذا الموقف، صرَف الله قلوب مسئولي السجن، فيعاملوه برفقٍ بدل القسوة.

٦: ومن معاني الفلق: ما يبقى من اللبن في أسفل القدح، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني: رب، قد آتيتني مِن خلال القرآن هديًا كاملا يشبه القدح المليء لبنًا؛ فأعوذ بك مِن أن أفقد هذا اللبن بسبب تقصيراتي فلا يبقى عندي منه إلا القليل، فأُصاب بالفقر الروحاني بعد الغنى. ورد في الحديث أنه عُرض على النبي ﷺ ليلة المعراج اللبن والماء والخمر، فتناول اللبن، فقال له جبريل: لو أخذتَ الماء أو الخمر لهلكتْ أمتك، ولكنك قد عملتَ بالفطرة، فأخذتَ اللبن (البخاري: كتاب التفسير). فثبت أن اللبن هو الهدي القرآني، وهو يتفق مع الفطرة الصحيحة. إذن، فالله تعالى قد علّمنا بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ بأن ندعو الله تعالى بالتوفيق للعمل بهدي

القرآن الكريم كما ينبغي، وللحفاظ عليه، فلا يأتي عليهم زمان يتركون العمل به، فيصبحون كشخص لم يبق في قدحه إلا قليل من اللبن. والمعروف أن الغنيّ إذا صار فقيرًا عانى عناء كبيرًا وشقّتْ عليه الحياة. فالله تعالى قد علّم هنا كل مسلم دعاءً فرديًا بألا يفقد النِّعم التي أُعطيَها والتي ينعم بها بهناء وسكينة، فتشق عليه الحياة. كما علّم المسلمين دعاءً جماعيًّا بألاّ يتحول الرخاء الذي يتمتعون به بسبب غلبة الإسلام إلى معاناة نتيجة زوال غلبتهم وانتهاء حكمهم، فتصبح الحياة صعبة عليهم، بل لو أتى عليهم وقت عصيب كهذا، أخذ الله بأيديهم وهيّأ الأسباب كي تتحول أيام ضعفهم إلى قوة.

٧: ومن معاني الفلق الأنهارُ، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني: أستعيذ بك يا خالق الأنهار مِن أن يصيبني أو قومي شرٌّ بسبب الأنهار. والواضح أن الأنهار تروي الأراضي، وبها تخرج الزروع والغلال، فلو جرت المياه في الأنهار على ما يرام وشُقّت منها القنوات لِريّ الأراضي، لنفعت البلاد نفعًا عظيمًا، ولكنها لو جاءت بالفيضانات لأهلكت الزروع وأغرقت الناس. فثبت أن الأنهار مع كونها نافعة جدا، وسببًا للحياة، إلا أن فيها جانبَ الشرِّ أيضا، فإذا ظهر شرها قضت على الحياة بدلاً من أن تكون سببًا في استمرارها. والحق أن هذا هو حال كل شيء، إذ فيه جانب الخير وجانب الشر أيضا، لذلك يعلّم الله تعالى المسلمين هنا ألا يبرحوا يدعون الله تعالى بأن يجعل كل ما أعطاهم من نعمة مادية أو روحانية نافعًا لهم، ويحميهم من شرّه وضرّه، فلا يصابوا بالكبرياء لما آتاهم من علوم غزيرة ومعارف عظيمة، فيحتقروا الآخرين، وعليهم ألا يعتبروا ما آتاهم الله من فضله هو نتيجة كفاءاتهم الذاتية.

وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

غاسِق: غسَقَتْ عينُه غُسوقًا: دمعتْ، وقيل: انصبّتْ، وقيل: أظلمتْ. وغَسَقت السماء غَسْقًا: انصبَّتْ وأَرَشَّتْ. وغسَق اللبنُ: انصبَّ من الضرع. وغَسَق الجرحُ: سالَ منه شيءٌ أصفر. وغسق الليلُ غَسْقًا وغَسَقًا: اشتدّت ظلمتُه. والغاسِق: القمرُ؛ أو الليلُ إذا غاب الشفق واشتدت ظلمتُه، ومنه ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، قيل: الليلِ إذا دخل، أو الثريا إذا سقطتْ لكثرة الطواعين والأسقام عند سقوطها (الأقرب).

ومن معاني الغاسق: الشمسُ إذا غربت. (تاج العروس)

وفي "المفردات": "غَسَقُ الليل: شدةُ ظلمته. قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وذلك عبارة عن النائبة بالليل كالطارق. وقيل: القمرُ إذا كُسف فاسوَدّ."

وَقَبَ: وقَبت الشمسُ وغيرُها: غابت. وقَبَ الرجل وقْبًا: دخل في الوَقْب؛ غارت عيناه. ووقَب الظلامُ على الناس: دخل وانتشرَ، ووقَب القمر: دخَل في الكسوف. والوَقْبُ: نُقْرةٌ في الصخرة يجتمع فيها الماء، والوقبة: الكُوّةُ العظيمة فيها ظِلٌّ (الأقرب).

وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني:

١: أعوذ مِن شرّ ظلمة الليل إذا اشتدت.

٢: أعوذ مِن شرّ الوقت الذي تغيب فيه الشمس.

٣: أعوذ مِن شرّ كسوف القمر والشمس.

٤: أعوذ مِن شر الضيق بعد الرخاء.

٥: أعوذ مِن الحوادث التي تقع في الليل.

٦: أعوذ مِن شرّ الوقت الذي يسقط فيه الإنسان في الحفر.

التفسير: لقد بيّنت عند تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أن هذه الآيات أنبأتْ أن غلبة الإسلام التي بدأت في عهد الرسول ﷺ ستكتمل حتمًا، وأن الله سيعطي المسلمين النعم بكل أنواعها، ثم أمَر الله المسلمين أن يدعوه أن يعجّل لهم هذه الغلبة من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يستعيذوا به سبحانه مِن أن يُصابوا بالمساوئ التي تُصاب بها الأمم الغالبة الحاكمة عادةً، وألا ينغمسوا في الملذات جرّاء الرخاء وكثرة الأموال، وأن لا يتحاربوا فيما بينهم طمعًا في العزّ والجاه. وبعدها يقول الله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، وقد ذكرنا آنفًا أن الغاسق يعني الليل، والوقوب يعني اشتداد الظلمة، ومن معاني الغاسق الشمسُ إذا غربت، ومن معاني الوقوب الاختفاءُ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني:

١: إنني أستعيذ بالله تعالى من شر الزمن الذي تغيب فيه الشمس ويشتد الظلام.

ويقول الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٦-٤٧).. أي: لقد بعثناك قدوةً للناس، ومبشرًا للمؤمنين بالرقيّ، ومنذرًا للمنكرين بالعذاب، وداعيًا إلى الله بأمره، وشمسًا مضيئة للعالم. فهنا قد سمّى الله النبي ﷺ شمسا مضيئة، وأنبأ أنّ نوره سينوّر العالم. فبقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قد أشار الله تعالى لرسوله أنه من المقدّر أن ينتشر هَدْيُه في العالم كله وأن يضيء العالم كله كالشمس في كبد السماء، ثم أمره الله بقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أن يدعوه تعالى ألا يختفي وجهه المضيء عن الأنظار في وقت من الأوقات، كي لا يُحرم الناس نورَه، فيخيم الظلام على العالم، كما أمر الله تعالى كلّ فرد من أمته ﷺ أن يدعو الله تعالى ألا يُصابوا بالانحطاط بعد كل ما يعطيهم الله على يده ﷺ من الرقي الروحاني والماديّ، ولا يتخذوا القرآن مهجورا، فيُحرموا نور محمد وضوء القرآن، فيخيم عليهم الظلام، وألا يكون هناك ما يدفعهم إلى هوة الدمار بعد الرقيّ الماديّ،

أما إذا حصل ذلك بسبب أخطائهم فيأخذ الله بأيديهم ثانيةً ويهيئ الأسباب لكي يروا وجه نبيهم المضيء، وتتحول أيام الانحطاط إلى أيام الرقي مرة أخرى.

٢: ومن معاني الغسق الكثرةُ والغزارة، يقال غسقت السماءُ غَسْقًا.. أي انصبّت وأَرَشَّتْ، وغَسَقَت عينُه: دمعتْ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: أستعيذ بالله من الضيق بعد الرخاء. وواضح أن زيادة المال يضرّ حينًا وقِلّته حينًا، تمامًا كما نرى أن زيادة النور تضرّ العيون تارة، وتارةً تتضرر العيون من شدة الظلام؛ فمن صوَّب نظره إلى الشمس فقَدَ بصره، ومن عاش في الظلام طويلا ضاع بصره أيضًا. فثبت أن الإنسان لا ينعم بالراحة والسكينة إلا باتّباع الطريق الوسط، وقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ﴾ دعاءٌ لتجنُّب شرّ كثرة المال. وأما قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ فدعاءٌ لتجنُّب شرّ قلّة المال؛ لأن هذه الحالة أيضا خطيرة جدا حتى قيل: "كاد الفقر أن يكون كُفرًا" (شعب الإيمان للبيهقي، والجامع الصغير للسيوطي).. أي أن قلة المال تتسبب في ضياع إيمان المرء في بعض الأحيان، ومن أجل ذلك قد علّمنا الله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، أي: أن نتوسل إليه تعالى بألاّ يصيبنا الفقر بعد الرخاء؛ ذلك أن الفقير لا يشعر بفقره كثيرا، ولكن مَن رأى ضيق اليد بعد بحبوحة العيش والغنى، صارت حياته أشدَّ عناء.

٣: ومن معاني الغاسق: القمرُ، والشمسُ إذا غربت، ومن معاني الوقوب الخسوفُ والكسوف، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: إني أستعيذ بك يا رب من شرّ الزمن الذي تُكسف فيه الشمس والقمر.

ولكسوف الشمس والقمر مفهومان:

الأول: أن تختفي الأنوار التي لا بدّ منها لرقي المسلمين، وأن تصبح الأشياء التي تستمد هذه الأنوار من مصدرها غيرَ قادرة على استمدادها؛ فضوء الشمس مثلاً ذاتي، ويستمدّ القمر ضوءه من ضوئها وينير المعمورة، فإذا لم يستطع الاستنارة منها وأظلم، فهذا أيضا يندرج تحت قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾. فمع أن هذه الآية دعاءٌ علّمَنا الله إياه، إلا أنها تتضمن نبوءةً أنه سيأتي على الناس زمان يختفي فيه نور الرسول ﷺ عن أنظارهم؛ فلن يستطيع العامة منهم فحسب رؤية

نوره، بل لن يوجد بينهم الصلحاء والأولياء الذين هم بمنزلة أقمار له ﷺ ويقتبسون من نوره وينشرونه في العالم، ويخيم الظلام على الدنيا، فأمرَنا الله تعالى أن نستعيذ به من شرٍّ يمكن أن يصيب الأمة الإسلامية في تلك الحالة.

الثاني: كما يمكن أن يؤخذ الكسوف هنا بالمعنى المادي أيضا، أي تكون هذه الآية إشارةً إلى كسوف الشمس والقمر، حيث أمرنا الله تعالى أن نستعيذ من شرّ الزمن الذي يحصل فيه الخسوف والكسوف. فقد ورد في الحديث بكل وضوح أنه سيأتي على أمة النبي ﷺ -بعد رقيها المادي والروحاني- زمانٌ يسقطون فيه إلى الحضيض، ولن يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، وتنتشر فيهم المساوئ بكل أنواعها، وتنتهي دولتهم وقوتهم التي تمتعوا بها ببركة القرآن الكريم (مشكاة المصابيح: كتاب العلم، والجامع لأحكام القرآن: سورة النور)، ولكن الله تعالى سوف ينصرهم في ذلك الوقت العصيب ويبعث مِن عنده شخصًا باسم المسيح والمهدي، فيجعل على يديه الإسلام غالبا من كل النواحي، ويستردّ له مجده الغابر، وستظهر عند بعثته آيات كثيرة منها آية كسوف الشمس والقمر في شهر رمضان، فقال النبي ﷺ: "إِنَّ لِمَهْدِينَا آيَتَيْنِ لَمْ تَكُونَا مُنْذُ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ تَنْكَسِفُ الْقَمَرُ لأَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ وَتَنْكَسِفُ الشَّمْسُ فِي النِّصْفِ مِنْهُ." (الدارقطني: كتاب العيدين، باب صفة صلاة الخسوف).. أي: عندما يُبعث مهدينا لإرساء عظمة الإسلام، تظهر لتصديق دعواه آيتان لم تظهرا لأي مدّع من قبل.. وهما أن القمر سينخسف في أُولى ليالي خسوفه في شهر رمضان، ثم في الشهر نفسه تنكسف الشمس في منتصف أيام كسوفه.

فهذا الحديث يتضمن نبوءة معينة عن خسوف الشمس والقمر، وعليه فإن الله تعالى قد علَّمنا في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أن ندعوه أن يحمينا من شر ذلك الزمن الذي يضعف فيه الإسلام، ويقيم الله تعالى المسيح والمهدي لتوطيد عظمة الإسلام ومجده ثانية، فندعوه تعالى أن يجعلنا من أعوانه وأنصاره، ويحفظنا من العذاب الذي يحلّ بأعدائه.

٤: لقد ذكرتُ عند تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أن الله قد علَّمنا أن نستعيذ به من النقائص والعيوب التي قد تصيب الإنسان عند خَلْقِه، فتحول دون وصوله إلى الكمال، والآن قد علّمنا الله تعالى في قوله ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الدعاء أن يحمينا من سوء العاقبة، ذلك أنه في بعض الأحيان تكون البداية جيدة، ولكن العاقبة تكون سيئة؛ إذ تنتهي الحياة بالبعض في غير أوانها، حيث لا يستمرّ خيرُه بل يدمَّر كل شيء، ومن أجل ذلك قد أشار الله تعالى أولاً إلى بداية حياة الإنسان في قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، ثم ترك حياته الوسطية وأشار إلى نهايته وقال ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، فعلّمه أن يدعو: رب، أعوذ بك من شرّ الوقت الذي يسقط في الحفرة الشيءُ الذي قُدِّر له أن يختفي عن الأنظار.. أي حين يموت الإنسان ويُدفن في التراب؛ وبتعبير آخر قد أمر الله تعالى الإنسان أن يدعو: رب، أستعيذ بك من عيوبي الخَلْقية التي قد تحول دون تقدّمي، وأستعيذ بك مِن أن يؤدي موتي إلى ضرر بالدين، أو أن تظل أعمالي غير مكتملة، فتكون عاقبتها شرًّا بدل الخير. والواقع أن موت البعض يُعقِب شرًّا، إذ يموت دون إنجاز عمله، فتكون عاقبة عمله شرًا بدلاً من أن تؤدي إلى خير، لذلك علّمنا الله تعالى أن ندعوَه بأن يحمينا من الشرور التي قد تقع بعد الموت.

ومِن فضل الله عليَّ أنه قد بشَّرني أنّه سينجز أعمالي، وستكون عاقبتي حسنة جدًّا؛ فقد أوحى إليَّ في عام ١٩٤٢ "موتُ حَسَنٍ موتٌ حسَنٌ في وقتٍ حَسَنٍ". فالله تعالى قد اعتبرني في وحيه هذا بُروزًا (مثيلاً) للحسن عليه السلام، وأخبرني أنه سيحقق كلّ النبوءات المتعلقة بشخصي، ويجعل عاقبتي الحسنى، ولن يقع في الجماعة أي فساد. فالحمد لله على ذلك.

لقد قلتُ عند تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أن للفلق معاني عديدة منها: جهنم، والخشبة التي فيها ثقوب ويقيَّد فيها السجناء، والقليل من اللبن الذي يبقى في أسفل القدح، وهكذا علَّم الله تعالى المسلمين أن يدعوا أن يحميهم مما يدفع الأمم أو الأفراد إلى الجحيم والسجن، وأن يستعيذوا به تعالى من أن يُرفَع القرآن من بينهم فلا يبقى بيدهم منه إلا القليل، فكل هذه الأمور تدل على معنى الزوال

والانحطاط والظلام، أما هنا في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، فقد علَّمنا الله تعالى دعاءً جامعًا لتجنُّب هذه الشرور، فأخبر أن من واجب كل فرد من الأمة أن يتوسل إلى الله تعالى أن يحميهم من الخصام بعد عيشهم في سكينة وطُمأنينة، ومن عيش الذل بعد أن كانوا حكامًا، ومن العيش في الظلام بعد أن كانوا في نور.

لقد بينتُ عند تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أنه دعاءٌ فردي –بالإضافة إلى كونه دعاءً جماعيا– لإحراز الكمال، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: أن الإنسان لو خيَّم عليه الظلام بعد اهتدائه إلى سبيل الرقي ورؤيته منارة النور نتيجة دخوله في ملاذ الله تعالى، لكان أشدَّ معاناة، إذ مثله كمثل مَن يمشي في النور، ثم دخل في الظلام فجأة، فلم يرَ شيئا. والحق أن المؤمن يمرّ بمثل هذه المراحل في سلوكه الروحاني، إذ يتضح من القرآن الكريم أنه تطرأ عليه حالات مختلفة من القبض والبسط الروحاني، فحينًا يبدو له أنه قد وجد الله تعالى وكأنه في يده، وهي حالة البسط، ثم تطرأ عليه حالة أخرى يشعر فيها أن هذا النور الذي قد رآه قد غاب عنه، وكثير من الحمقى يصابون باليأس عندها ويفشلون بعد أن يكونوا قد أوشكوا على بلوغ غايتهم المنشودة، فيظنون: أن ما رأوه لم يكن نورًا، ولذلك يقول الله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.. أي: أيها المسلم، عليك أن تدعو الله تعالى: ربّ، إذا تمتّعتُ بنورك، فلا تجعل حالةَ القبض تسبّب لي موتًا روحانيا، بل تدفعني إلى الرقي باستمرار، فلا أرى بعد الكمالِ زوالاً، ولا أموت ميتة حسرة.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أن المؤمن بالتوحيد الكامل عندما يعلن –امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾– أنه لا يثق بأحد سوى الله تعالى، فلا بد أن يواجه المعارضة، فيصبح الأصدقاء أعداء، والمتعاطفون معارضين، فيخيِّم عليه الظلام، فأمره الله تعالى أن يستعيذ به وحده عندها.

كما أن الله تعالى كان قد علَّمه الدعاء لإحراز الكمال في قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: أن على

الإنسان أن يتوسل إلى الله دائما بأن يحفظه -خلال جهوده لإحراز الكمال- من شرّ ما يمكن أن يؤثّر فيه وهو غافل، أو يضرّه على حين غرّة منه.

وهنا ينشأ سؤال وهو: ما دام من المقدَّر أن يخيّم الظلام على المسلمين فما الداعي للقيام بهذه الأدعية؟

والجواب: لا شك أن هذه الأدعية لم ينتفع منها كل المسلمين و لم ينجوا من الشرور، إلا أن الله تعالى قد حافظَ ببركة دعاء الرسول ﷺ والمسلمين الآخرين على بذرة الإسلام في كل زمن، فلم يزل هناك في كل عصر قبسٌ من ناره، توقد منه النيران ثانيةً. إذن، لقد أمر الله رسوله أن يقوم بهذه الأدعية لكي ينجو ببركتها مِن المسلمين في زمن رقيهم مَن كان على علاقة صادقة مع الرسول ﷺ، وهكذا أصبح النبي ﷺ شفيعًا لأهل كل عصر. ولما كان الشر الذي أخبر الله عنه هنا في قوله ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ذا صلة بالأمة كلها، فمَن نال نصيبًا من أدعية الرسول ﷺ بسبب علاقته الصادقة به ﷺ من أهل القرن الأول، فكأنه قد نجا نتيجة شفاعته ﷺ المتمثلة في دعائه، وأصبح النبي ﷺ شفيعا لهم، كذلك كل من كان على صلة مع الرسول ﷺ من أهل القرنين الثاني والثالث وما بعدهما، فقد استحق شفاعته وحُفظ ببركة دعائه من الشرور الروحانية، وهكذا قد نجا مئات الآلاف في كل عصر ببركة صلتهم الصادقة مع النبي وانسجام أدعيتهم مع أدعيته ﷺ. ومع أن الشرّ ما زال يتفاقم والظلام ما فتئ يشتدّ، حتى إذا اختفى نور محمد ﷺ عن الأنظار، وتحقق قوله ﷺ: "لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه" (شعب الإيمان للبيهقي: ٣١١/٢ رقم ١٩٠٨، ومشكاة المصابيح: كتاب العلم، والجامع لأحكام القرآن: سورة النور)، واتخذ المسلمون القرآن مهجورًا، أقام الله تعالى ببركة دعائه ﷺ رجلاً فارسي الأصل لإنقاذ الإسلام، فجاء بالقرآن من السماء إلى الأرض ثانية، فتحولت ليالي المسلمين أيامًا مشرقة. فثبت أن أدعية الرسول ﷺ وأدعية أفرادٍ من أمته لم تذهب سدى، بل ببركتها قد قرّر الله تعالى طلوع قمر في سماء الإسلام ليُرِيَ الناس وجهَ محمد ﷺ، كما يُري البدرُ في ليلته الرابعة عشرة وجهَ الشمس.

وليكن معلومًا أيضا أن القرآن لا يختتم بالمعوذتين، بل كما هي العادة عند المسلمين فإن أحدهم إذا بلغ نهاية القرآن عاد وقرأ شيئًا من أوله فورًا لكي لا تنقطع سلسلة التلاوة القرآنية هذه. والواضح أن القرآن يبدأ بقول الله تعالى ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين﴾، وإذا كان من سنة الله تعالى أن يتلو كلَّ رُقيٍّ انحطاطٌ، كذلك من سنته تعالى أن يَطلع بعد كل ليل نهارٌ حتمًا، ومن أجل ذلك تطلع الشمس المحمدية ثانيةً ببركة الاستعاذة التي قام بها النبي ﷺ. إن شمس الأنبياء السابقين إذا غربت، قامت أمة جديدة، ولكن من خصوصية القرآن أن الحمد يعود ثانية ببركة الاستعاذة في ختامه، فتُعاد العملية نفسها ثانيةً. وكأن الله تعالى قد بيّن بذلك أن مَن عمل بهدي محمد فلا بد أن يترقى، ثم يمر بهذه الظروف الصعبة، فينقذه الله تعالى ببركة استعاذة محمد ﷺ، فيبدأ الفلق المحمدي في الظهور مرة أخرى. فالحكمة في إيراد الاستعاذة (المعوذّتين) في ختام القرآن الكريم هي الإشارة إلى أن الدين المحمدي لن ينتهي. إن الكتب السابقة بدأت بالتعوذ، فانتهت، أما القرآن فقد أُمرنا بالتعوذ في بدايته، كما أنزل الله الاستعاذة عند ختامه أيضا، وأمَر كل فرد من الأمة بدعاء الاستعاذة، فكأن ذلك إعلام بأن دين محمد ﷺ لن ينتهي، بل سيبقى إلى يوم القيامة.

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

النفّاثات: جمعُ النفّاثة، ونَفَثَ مِن فيه: رمى به. ونفَث الجرحُ الدمَ: أظهرَه. ونفَث: بزَق؛ وقيل بَزَقَ ولا ريق معه، أو هو كالنفخ وأقَلُّ من التفل. ونفث فلانا: سحَره. ونفثت الحيّةُ السمَّ: نكَزتْ. ونفَث القلمُ: كتَب. ونفث الله الشيءَ في القلب: ألقاه. (الأقرب)

فالمراد من النفاثات: ١: الجماعات أو الفئات أو النفوس التي تبزق كثيرا، ٢: أو تنفث السمّ، ٣: أو توسوس في القلوب. ٤: أو تكتب كثيرا.

العُقد: جمعُ العُقْدَة، ومن معانيها: الولايةُ على البلد؛ الضيعةُ؛ العقارُ الذي اعتقده صاحبُه مِلْكًا، أي اقتناه؛ موضعُ العَقْد؛ ما يمسك الشيءَ ويوثقه؛ البيعةُ المعقودة لهم أي للولاة؛ المكانُ الكثير الشجر والنخل والكلأ الكافي للإبل؛ ما فيه بلاغُ الرجل وكفايته؛ كلُّ أرض مخصبة؛ والعقدةُ مِن كل شيء: وجوبُه وإحكامه وإبرامه. (الأقرب)

وفي "المفردات": العَقْد: الجمعُ بين أطراف الشيء... ثم يستعار ذلك للمعاني نحو: عقد البيع والعهد وغيرهما."

وعليه، فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ يعني:

١: أستعيذ من شرّ النفوس التي تفسد صداقات الناس ومعاهداتهم.

٢: أستعيذ من شرّ الفئات التي تحرّض على محاربة الخلفاء ونقض بيعتهم.

٣: أستعيذ من شر النفوس التي تدمّر وحدة المسلمين وتقضي على حكوماتهم.

التفسير: ١: كما ذكرنا آنفًا أن من معاني العُقدة الولايةُ على البلد والبيعة للولاة، والمراد من النفث في العقد محاولةُ قطع العلاقات، ذلك أنه كان من عادة العرب فَتْحُ العُقَد في الخيوط والنفثُ فيها عند قطع العلاقة مع الآخر، كما يفعل السحرة اليوم للتفريق بين الناس، يقال: فلان ينفث في العقد، أي يحاول قطع علاقات المحبة بين الناس، وعليه: فقد أمر الله تعالى المسلمين بقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أن يدعوه أن يحفظهم من شرِّ قومٍ يحاولون نقض بيعتهم وتشتيت شملهم.

لقد أنبأ الله تعالى في الآيات السابقة عن انحطاط المسلمين، أما الآن فأشار إلى أحد أسباب انحطاطهم، حيث أخبر ﷻ أنه بعد وفاة النبي ﷺ ستقوم الخلافة في الأمة لجمْعهم على يد واحدة، فيتمتعون ببركاتها الكثيرة، ولكن سيفتر ولاءهم للخلافة وتنتهي بعد فترة، فيتشتتْ شملهم وتنقطع الصلات بين الراعي والرعية، إذ

تهبّ مِن كل قطر من الأقطار التي فتحها المسلمون فئةٌ تعادي الإسلام وتعمل بمنتهى المكر والخداع ضد أهله، فتنشر بينهم أفكارا تبثّ في قلوب ضعفائهم مشاعرَ التمرد والعداء، فيقطعون صلة ولائهم عن خلفائهم، حتى يخرجون على خلفائهم ويحاربونهم، وتحدث الفوضى بين المسلمين وينتهي ولاؤهم للخلفاء، ويتشتت شملهم، وتنقلب أيامهم إلى ليالٍ حالكة، ويتوقف رقيهم وازدهارهم، ويتحاربون فيما بينهم ويسعّرون بأيديهم جحيما لهم، وتغيب من بينهم الروحانية والطهارة، إذ يقطعون صلتهم عن الجذور التي تجلب لهم هذه البركات، ولذلك قد علّمهم الله تعالى أن يدعوه أن يُدخلهم في كنفه وينقذهم من شر تلك الأيام.

ومن معاني النفث الكتابةُ، وعليه فالنفاثات هي النفوس أو الفئات التي تكتب كثيرا، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ إشارة إلى نشر المنشورات المعادية لله ورسوله في الزمن الأخير على نطاق واسع، مما يثير فتنةً عظيمة وشرًّا مستطيرًا في العالم، وقد علَّم الله المسلمين أن يدعوه تعالى بأن يُعيذهم بملاذه من تلك الفتنة الصمّاء، ويحميهم من شر ذلك الزمن الذي تُنشر فيه الكتب بكثرة ضد الله ورسوله.

كما فيه إشارة ضمنية إلى إعداد المنشورات لإفساد العلاقات بين الحكام والرعايا في الزمن الأخير.

٢: لقد بيّنتُ عند تفسير قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أن الله تعالى قد علّمنا فيه دعاءً للنجاة من شر المساوئ الخَلْقيّة لكي لا تقف حائلا في رقينا، كما أمرنا بالاستعاذة من المساوئ التي قد تنشأ بموتنا في غير أوانه، وبعد أن علّمنا الله تعالى الاستعاذة من شر المفاسد التي قد تصيبنا في بداية حياتنا ونهايتها، علّمنا الآن الاستعاذة من شر المفاسد التي قد تصيبنا في المرحلة الوسطية من الحياة، فقال ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، فبيّن أن الإنسان قد لا يكون مصابًا بمساوئ خَلْقية، كما لا يموت موتًا في غير أوانه، غير أنه يصاب ببعض المساوئ في حياته الوسطية. وهذه المساوئ أيضا نوعان: أوّلهما ما يتعلق بزمن خَلْقه، والثاني ما يتعلق بزمن موته، وقد أشير إلى النوع الأول منهما هنا فقال

تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.. أي أن الإنسان في حالته البدائية يستمدّ غذاءه من أمه كالشجرة التي تستمدّ غذاءها من أصولها، مما يعني أنه يكون على علاقة مع أبويه فيما يتعلق بالربوبية الظاهرة، وعلى صلة مع الله تعالى فيما يتعلق بالربوبية الروحانية، فيكون ابنا روحانيًا لله تعالى الذي يخلقه ويربيه وينمّيه، فهو يستمدّ كلّ قوته وغذاءه ونماءه من هذه العُقدة، أو الصلة، الموجودة بينه وبين الله تعالى، ولكن يسعى الأشرار أن يوسوسوا في قلبه ليقطع هذه الصلة بينه وبين ربه، فينصاع العبد الجاهل لهم ويُعرض عن ربه أحيانًا، وذلك كما يفعل الجهال من الأولاد في الدنيا إذ يتركون آباءهم ويقطعون كل صلة معهم؛ ولذلك قد أمرنا الله تعالى أن ندعوه كي لا تنقطع هذه العقدة التي تربطنا به تعالى، والتي مِن خلالها نستمدّ فيوضه، بل تتقوى هذه الصلة التي تربطنا بأبينا الروحاني كيلا نُحرم ما نستمده منه من غذاء، فنكون من الهالكين.

باختصار، فقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ دعاءٌ لتجنُّب الشرور الخَلْقية، وقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ دعاءٌ بشأن الشرور المتعلقة بالموت، وقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ دعاءٌ بشأن الأمور التي إذا ابتعد عنها الإنسان ضعُفت فيه القوى التي تساعده على إحراز الكمال، فيظل محروما منه.

٣: وكان الله تعالى قد أوصى المسلم في قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ *وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ بأنه إذا كان قد آمن بالتوحيد الكامل فعليه أن يعلن عن وحدانية الله في كل مكان، وإذا ثارت زوبعة المعارضة ضده، وأظلمت الدنيا في وجهه، فلا يُصاب بالهلع، بل عليه ألا يبرح رافعًا راية التوحيد عاليةً. أما قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ فبيّن ﷻ فيه أن المؤمن بالتوحيد الكامل حين يعلن أنه قد صار لله تعالى مستغنيًا عمن سواه، فلا بد أن يظل بعض أصدقائه أوفياء له، مشيدين بموقفه هذا، بينما سيسعى الآخرون إلى بثّ السموم ضده في قلوب من يوالونه، ليخذلوه ويكونوا له أعداء، لذلك يأمر الله هذا

المؤمنَ أن يعلن في هذه الحالة بأنه يلوذ بملاذ الله تعالى من شرّ هؤلاء الموسوسين في قلوب أنصاره ليخذلوه ويعادوه ويعرقلوا سبيله.

٤: لقد علّمنا الله في قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ دعاءً لإحراز الكمال، أما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ فعلّمنا الدعاء بألا يأتي علينا الزوال بعد الكمال، ولا تحيط بنا المصاعب والنوائب، أما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ فبيّن أن الإنسان حين يصير هدفا للبلايا والنوائب، يسعى البعض ليزيدوه فشلاً وذلاً، ويفسد علاقته مع مَن بقي من أصدقائه، وذلك كما نلاحظ في البيوت عادةً بأنه إذا سخط الوالدان على بعض أولادهما فسرعان ما يشكوه إليهما الآخرون، فيقول أحدهم: أماه، إنه قد فعل كذا وكذا، ويقول الآخر: يا أبت، إن هذا قد ضربني في وقت كذا. فمن عادة الناس أنه إذا سقَط المرء وذلَّ حاولوا أن يزيدوه سقوطًا وذلة، ويرفعوا ضده المزيد من الشكاوى، ولذلك قد علّمنا الله تعالى هنا أن ندعوه بأن يعيذنا ممن يسعوْن لإفساد علاقاتنا، لأن الإنسان لا يستطيع الحفاظ على علاقته بالله تعالى وعباده الصالحين وأقاربه وحكامه إلا بفضل الله تعالى فقط، إذ لا علم له بمَن ينفث السم في قلوب الناس للقضاء على علاقته معهم.

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

حاسد: حسَدَهُ الشيءَ وحسَدَه عليه: تَمنَّى زوالَ نعمته إليه. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله تعالى في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أحد أسباب الانحطاط، موضحًا أن الأمة إذا تشتّت شملها وتفرقتْ وحدتها هلكتْ، فمن واجب المسلمين ألا يبرحوا يسألون الله تعالى حمايته لهم من هذا المصير، وإذا

أصابهم فساد، فلينقذهم من نتائجه الوخيمة، أما هنا فبيّن الله تعالى سببًا آخر لهلاك الأمم، وهو أن يهبّ العدوّ من خارج الأمة للهجوم عليها لسلبِ ما خوَّلها الله من نعم وراحة ورخاء، لأنه إذا غلَبها توقّفَ تقدُّمها وازدهارها، وانقلبت جنتها جحيمًا، وأحاطتها مِحَنٌ شتى. فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعني: أيها المسلمون، سنكتب لكم الغلبة، حتى تضيء شمس ازدهاركم في عنان السماء، وتصبح بلادكم جنة على الأرض، فادعوا الله تعالى دائمًا أن لا يحسدكم حاسد أيام غلبتكم، ولا يتمكن مِن سلْبكم هذه النعمَ.

باختصار، إن الله تعالى قد بشّر هنا بغلبة المسلمين بأسلوب رائع، ثم أمرهم بأن يأخذوا حِذْرهم من الانحطاط، داعين الله تعالى أن يحميهم منه دائما، كما نبَّههم إلى مسببات الدمار الذي سيحلّ بهم، لكي يجتنبوها.

ثم إن من المواضيع التي بيّنتْها سورة الفلق؛ أن على المؤمن أن يتّكل على الله وحده، ويعلن عن وحدانيته في كل مكان، وإذا واجه معارضة في هذا السبيل أو حاول البعض إثارة أقاربه وأصدقائه وأهله وأولاده ضده، فعليه ألا يبالي بأحد، وبعد بيان هذا الموضوع يقول الله تعالى الآن ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، أي: أن الإنسان إذا توكّل على الله تعالى توكّلاً لا يبالي بعده بأحد، فقد صار لله حقًّا، وعُدَّ صادقًا في دعوى التوكل عليه، ومَن بلغ هذا المقام حسده الناس برؤية تقدّمه وطعنوا فيه بأنواع المطاعن، كأن يقولوا مثلاً بأنه لم يحرز هذا الرقي إلا صدفة، وما إلى ذلك من أقوال سخيفة، ولذلك يأمره الله أن يعلن بأنه لا يبالي بمكائد الحاسدين، بل يتوجّه إلى ربه ويعوذ بملاذه؛ لأنه رحيم كريم، ولا يضيع المتوكلون عليه.

ثم إن الله تعالى قد علَّمَنا بقوله ﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾ في بداية السورة، دعاءً لإحراز الكمال، ثم أمر أن ندعوه ألا نرى الزوال بعد الكمال، أما قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فعلّمنا به أن الإنسان لا يخلو من

أحد حالين: حال الرقي، أو حال الانحطاط، ومن الملاحظ أن المرء إذا ضعُف أو تعرّضَ للانحطاط، قام كثيرون لإسقاطه أكثر، أما إذا ارتقى، قام كثيرون يحسدونه، وليس هناك حالة ينجو فيها الإنسان من شر الناس، فهو عرضة للخطر في ضعفه أو في رقيه أيضًا. فهو في حالة ضعفه مهدَّدٌ مِن قِبل قوم يجدون المتعة في إسقاط الساقط وإهلاك الهالك أكثر، وهو في حالة ازدهاره مهدد من قِبل الحاسدين الذين يريدون أن يضرّوه. فهو ليس في مأمن في أي حال، وبالتالي ليس في غنى عن نصرة الله بحال من الأحوال.

ثم إن قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ إشارةٌ إلى بعثة مبعوث سُمِّيَ في الحديث النبوي: المهديّ والمسيح، حيث بين الله تعالى أنه سيظهر في زمن يكون فيه المسلمون مشتتين متفرقين، يعوزهم الاتحاد والمركزية. فإذا بعثه الله تعالى لإصلاح العالم عارضه الناس بشدّة وحسدوه. فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ إشارةٌ إلى أن على المسلمين أن يدعوا الله تعالى أنه إذا بُعث هذا المبعوث، فلا يكونوا من حساده وأعدائه، بل من أنصاره وأعوانه، ليرثوا أفضال الله ونِعمه.

إنّ مفاهيم هذه السورة التي بيّنّاها بإيجاز تدلّ على أنها ذات أهمية قصوى من حيث مواضيعها، وأن الله تعالى قد علَّم فيها المسلمين -أمةً وأفرادًا- دعاءً كاملا، محذرًا إياهم من أسباب هلاك الأمم والأفراد، وبيّن أن الإنسان لا يكون في مأمن من الآفات والبلايا إلا إذا دخل في كنف الله، فالطريق السليم للأمن والسلام أن يظلّ المرء عاكفًا على عتبة الله، ويسأله الحماية دائما.